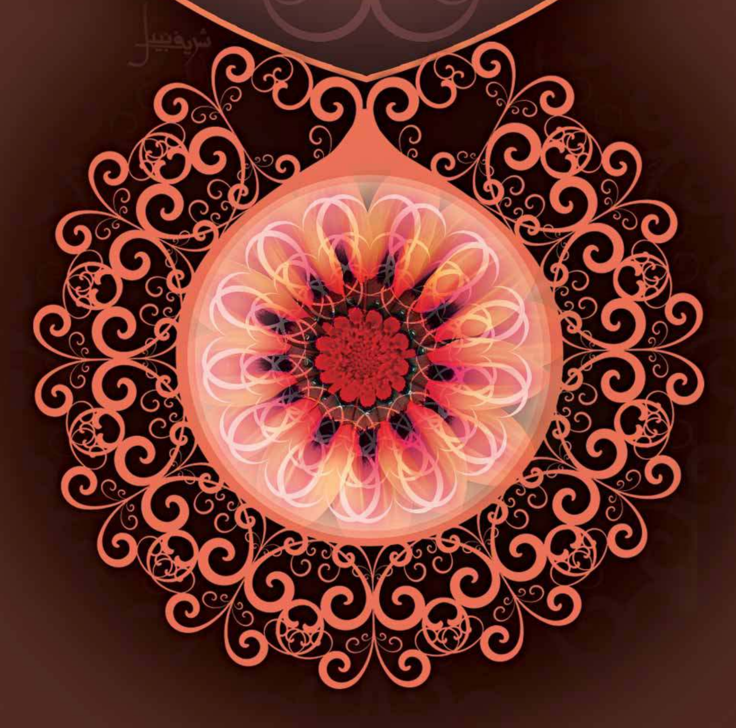
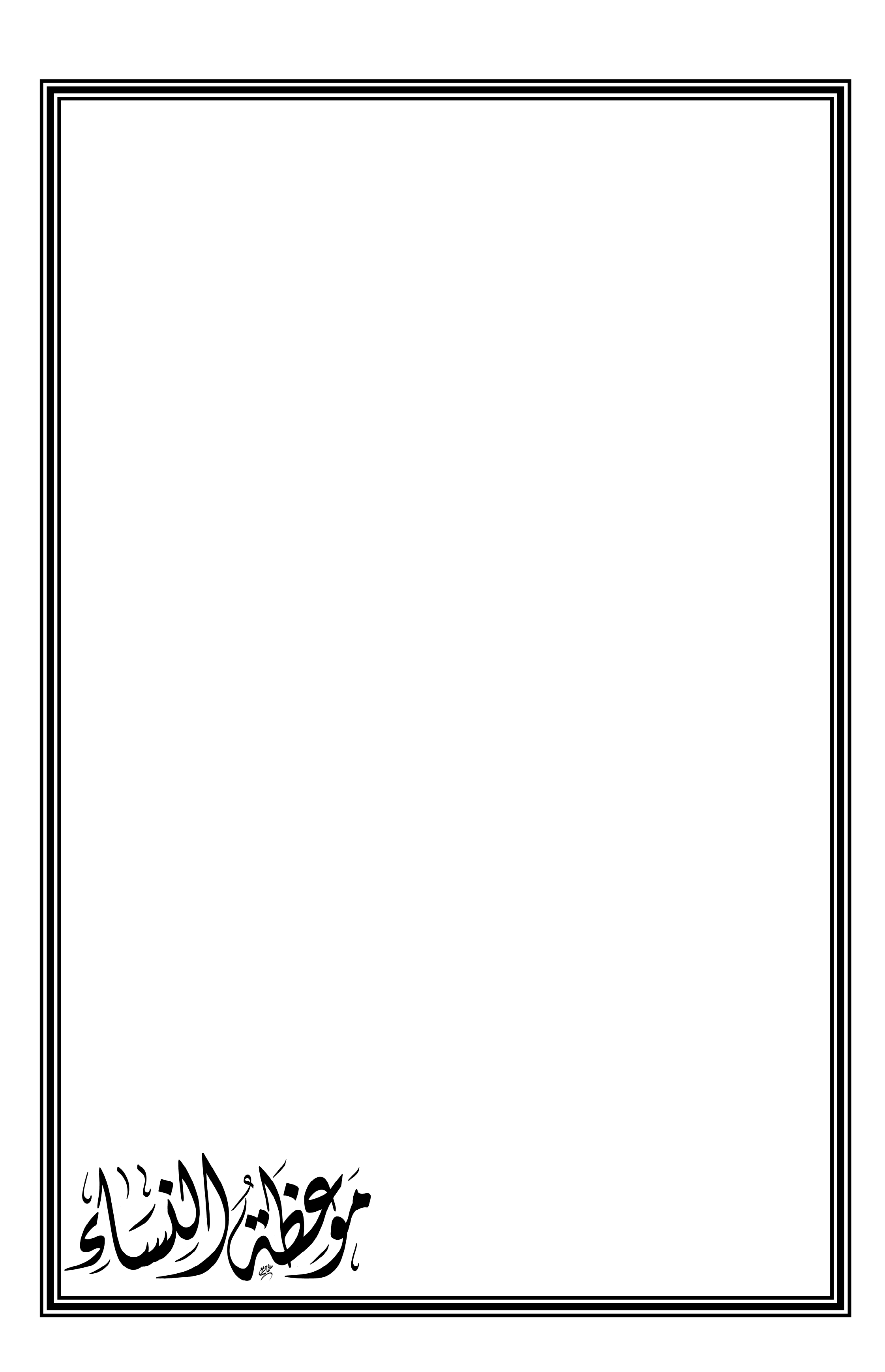
موعظة النساء

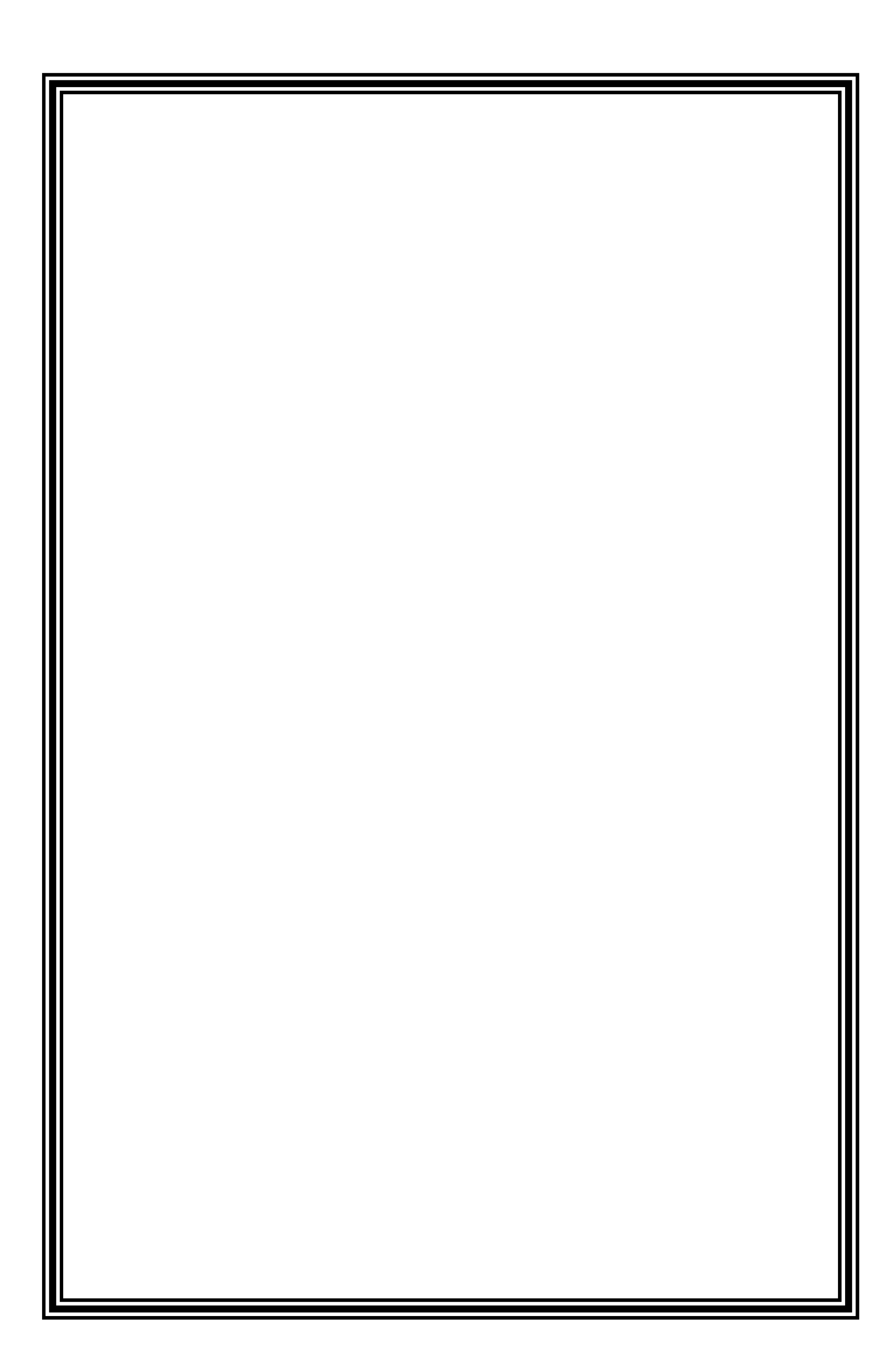


إعداد

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر




موعظة النساء





إعداد

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر



مُقَـدّمَة

الحمد لله الذي منَّ علينا بالقرآن، وهدانا للإيمان، وشرح صدورَنا للإسلام، وجعلنا من أمَّة مُحمَّدٍ ﷺ خيرِ الأنام، وأشهد أن لا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له المَلِك العلَّام، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُه، وصَفيُّه وخليله خيرُ الأنام، صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وصحبه الكرام.

أمَّا بعد؛ فهٰذه رسالةٌ حَوَت جملةً من النَّصائح والتَّوجيهات تَخُصُّ المرأةَ المسلمةَ، وأصلُ كثيرٍ منها خطبٌ ألقيتها في أوقاتٍ متفاوتةٍ، أشار بعضُ الأفاضل أن تُطبَعَ مجتمعةً رجاءَ أن ينفَع الله بها، وقَد كان مِن هَدْيِ نبيِّنَا الكريم ﷺ تخصيصُ النِّساء بالوعظ والتَّذكير كما في «البخاري»[1] عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: «خَرَجَ رسُولُ الله ﷺ فصلَّى ثُمَّ خطبَ ثمَّ أتَى النِّساءَ فوعظَهنَّ وذكَّرهُنَّ وأمرهُنَّ بالصَّدقة»، قال الحافظ ابن حجر: «وفي هذا الحديث من الفوائد استحبابُ وعظ النِّساء، وتعليمهنَّ أحكامَ الإسلام، وتذكيرهنَّ بما يجبُ عليهنَّ»[2]، وقد سَمَّيْتُ

(١) برقم (٥٢٤٩).

(٢) «فتح الباري» (٢/ ٤٦٨).

هذه الوصايا والنَّصائح «**موعظة النِّساء**»، والله المرجوُّ وحدَه أن يوفِّق نساءَ المسلمين وبناتِهِم لكلِّ خيرٍ وصلاحٍ وعزٍّ ورفعةٍ، وأن يجنِّبَهنَّ مُضِلَّاتِ الفتنَ ما ظهر منها وما بطن، إنَّه سميعٌ مجيبٌ، وما توفيقي إلَّا بالله عليه توكَّلت، وإليه أُنيب، ولا حول ولا قُوَّةَ إلَّا بالله العليِّ العظيم، وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا مُحمَّد وآله وصحبه.



أصول عظيمة

يا أَيَّتُها المُوفَّقَة: طيَّب اللهُ حياتَك بالعلم والإيمان، وطيَّب أوقاتكِ بالطَّاعة والإحسان، وطيَّب بدَنَك بالسِّتر والاحتشَام؛ هٰذه وصيَّةٌ أُهديها لكِ راجيًا من الله سبحانه وتعالى أن ينفعَكِ بها، ولا سيَّما أنَّكِ في موضعٍ أنتِ فيه قدوةٌ في الخير والاستقامة والطَّاعة لله تبارك وتعالى.

عليكِ أن تستَشعري ـ أيَّتُها الفاضلة ـ أنَّ نعمةَ الله سبحانه وتعالى عليك بهٰذا الدِّين عظيمةٌ ومنَّتَه عليكِ بالهداية إليه كبيرةٌ؛ فهو الدِّين الَّذي ارتَضاه لعبادِه وكمَّله لهم ولا يقبل جلَّ وعلا منهُم دينًا سواه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [سورة آل عمران]، وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] نَعَمْ، إنَّه الدِّين الَّذي أصلحَ الله به العقائد والأخلاق، وأصلح به الحياةَ الدُّنيا والآخرة، وزيَّن به ظاهرَ المرءِ وباطنَه، وخلَّصَ به مَن اعتنَقه وتمسَّكَ به مِن براثن الباطل ومهاوي الرَّذيلة ومُنْزَلَقَات الانحراف والضَّلال، إنَّه الدِّين العظيمُ المبارَك المثمِرُ للخَيرات المبارَكَات والثِّمار

النَّافعات الَّتي تعود على المستَمسك به في دنياه وأُخراه.

ولا بدَّ في هٰذا المقام ـ أيَّتُها الأختُ الفاضلة ـ مِن تذكُّر واستحضار جملةٍ من الأصول العظيمة تُعِين متأمِّلَها على لُزوم هدَايات الدِّين وتوجيهاتِه العظيمَة وتلقِّيها بالقَبول وانشراح الصَّدْر والرِّضا، وتُنير للمرأة المسلمةِ طريقَها وتسدِّدُ لها بإذن الله تبارك وتعَالى مسارَها إن وُفِّقت للعِلم بها والأخذ بها، ولعلِّي أنبِّه على أهمِّ هٰذه الأصول وأعظمِها راجيًا منَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن ينفعكِ بها.

* **أوَّلًا**: عليكِ أن تعلَمي علمَ اليقين أنَّ أحسنَ الأحكام وأقوَمَها وأكمَلَها وأجمَلَها أحكامُ ربِّ العالمين وخالقِ الخلق أجمعين تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [سُورَةُ المَائِدَة]، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ [سُورَةُ التِّين]، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [سُورَةُ الأَعْرَاف]، فإذا أيقَنَت المسلمةُ بذلكَ لم تتردَّد في قَبول أيِّ حُكمٍ يبلُغُها ممَّا حكَمَ وأمَر به اللهُ جلَّ وعلا.

* **الأمر الثَّاني**: عليكِ أن تُدْرِكِي أنَّ سعادتَكِ وكرامتَكِ مرتبطةٌ تمامَ الارتباط بهٰذا الدِّين وبالطَّاعة لربِّ العالمين والتزام أحكامِه وشرعِهِ، وأنَّ حظَّكِ ونصيبَكِ من السَّعادة بحَسب حظِّكِ ونصيبِكِ منَ الطَّاعة والالتزام، وقَد قال الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [سُورَةُ النِّسَاء]، وقال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [سُورَةُ الشَّمْس]، والآيات في هٰذا المعنى كثيرة.

* **الأمر الثَّالث**: عليك التَّنبُّه ـ وفَّقكِ الله ـ إلى أنَّ المسلمةَ لها في هٰذه الحياة أعداءٌ كُثُر يسْعَون للإطاحة بكرامَتها، وخَلْخَلة سبيلَ عزِّها وفلاحِها وسعادتِها

وإيقاعِها في حمأَة الرَّذيلة والفَساد، ويقدِّمون في سبيل ذلك كلَّ ما يستَطيعون، ويأتي في مُقدِّمَة هؤلاء الأعداء الشَّيطانُ عدوُّ الله وعدوُّ الدِّين وعدوُّ عباده المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾ [سُورَةُ فَاطِر]، فالواجبُ الحذَر كلَّ الحذَر مِن هؤلاء الأعداء الَّذين غايتُهم وأكبَرُ مُنْيَتِهم أن تَتَحلَّل المرأةُ المسلمة مِن أخلاقِها وآدابِ دينِها، وأسباب عزِّها وفلاحِها في الدُّنيا والآخرة.

* **الأمر الرَّابع**: عليكِ ـ أَيَّتُها المُوفَّقة ـ أن تؤمِني إيمانًا جازمًا أنَّ التَّوفيق والصَّلاح والاستقامة وتحقُّق الخير والبركة والكَرامة بيدِ الله جلَّ وعلا، فهو الَّذي بيده أزِمَّةُ الأمور ومقَاليد السَّمٰوات والأرض؛ فمَن أعزَّه الله فهُو العَزيز، ومَنْ أذلَّهُ الله تباركَ وتعالى فهو المُهان، وقَد قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ١٨﴾ [سُورَةُ الحَجّ]؛ ولهٰذا عليكِ في هٰذا المقام أن تقوِّي صِلتَكِ بالله، وأن تلجئي إلى الله ﷻ دومًا وأبدًا سائلةً الهدايةَ والتَّوفيقَ والثَّباتَ على الدِّين، وأن يسلِّمَكِ منَ الفتَن وأن يُصلِح لكِ دينَكِ، وأن يعيذَكِ من الشُّرور، وأن يجنِّبكِ مواطنَ الرَّيب والفساد، ومَن أقبل على الله بصدقٍ ودعاه ورجاه حقَّق الله ﷻ له مُرادَه ويسَّر له مُبتَغاه، ومِن عظيم الدُّعاء «**اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلِ الحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلْ المَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ**»[1].

* **الأمر الخامس**: أن يكون أكبرُ اهتمامكِ ـ أَيَّتُها المُوفَّقة ـ في هٰذه الحياة أن

---

(١) رواه مسلم (٧٠٧٨).

تحظَيْ بنَيْل الكرَامَة عند الله، وأن تفُوزي بالسَّعَادة برضا الله ﷻ، وأن تسْعَدي بما أعدَّه الله ﷻ لعباده المُكْرَمِين الَّذين قال الله فيهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ٣٥﴾ [سورة المعارج]؛ فتلك هي الكرامة الحقيقيَّة، وقَد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٣]، وفي «الصَّحيح» عن أبي هُريرة رضي الله عنه قال: «قيل للنَّبيِّ ﷺ: مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قال: «**أَكْرَمُهُمْ أَتْقَاهُمْ**»[(١)]، فمَن ابتغى الكرامةَ مِن غير هٰذا السَّبيل فإنَّما يركُضُ في سَرابٍ ويسعَى في سبيلِ خيبةٍ وخُسرانٍ وتَبَاب.

* **الأمر السَّادس**: عليكِ أن تعلَمي ـ أيَّتُها المُوفَّقة ـ أنَّ أحكامَ الشَّرع المُتَعلِّقَةَ بالمرأة شأنُها كشأن أحكام الدِّين كلِّها؛ مُحكَمةٌ غايةَ الإحكام، مُتقَنَةٌ غايةَ الإتقان لا نقصَ فيها ولا خَلَل، ولا ظُلْمَ فيها ولا زَلَل، كيف لا! وهي أحكامُ خيرِ الحاكمين، وتنزيلُ ربِّ العالمين، الحكيمُ في تدبيره، البصيرُ بعباده، العليمُ بما فيه سعادتُهم وفلاحُهم وصلاحُهم في الدُّنيا والآخرة؛ ولهٰذا فإنَّ مِن أعظم العُدوان وأشدِّ الإثمِ والهوانِ أن يُقَال في شيءٍ من أحكام الله المُتَعلِّقَة بالمرأة أو غيرها: إنَّ فيها ظلمًا أو هَضْمًا أو إجْحَافًا أو زَلَلًا، ومَن قال ذلكَ أو شيئًا منه فما قدَرَ ربَّه حقَّ قَدْره، ولا وقَّره ﷻ حقَّ توقِيره، والله جلَّ وعلا يقول: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣﴾ [سورة نوح] أي لا تعاملونه معاملةَ مَنْ تُوَقِّرونه، والتَّوقير: التَّعظيم؛ ومِنْ توقيره سبحانَه أن تُلتزَمَ أحكامُه وتُطاعَ أوامرُه ويُعتَقَدَ أنَّ فيها السَّلامةَ والكمالَ والرِّفعةَ، ومَنِ اعتقَد فيها خلافَ ذلكَ فما أَبْعَدَهُ عن الوقار! وما أَجْدَرَهُ في الدُّنيا والآخرة بالخِزي والعَار! فلنتَّقِ الله ولنُعَظِّم أحكامَ الله ﷻ ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ

(١) أخرجه البخاري (٣٣٧٤).

﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [سُورَةُ الحَجِّ].

هٰذه بعضُ التَّأصيلات المُهمَّة والضَّوابط العَظيمة والأسُس المتينَة الَّتي نحتَاج أن نتَذكَّرها دائمًا لتَلِينَ قلوبُنا، وترتاضَ نفوسُنا، ولنَقبَل أحكامَ الله ﷻ كلَّها بانشراح صدرٍ وطُمأنينَة نفسٍ وإقبالٍ على أحكامِه ـ جلَّ في عُلاه ـ الَّتي هي سبَب السَّعادَة وسبيل الفلاح في الدُّنيا والآخرة.

ثمَّ ـ أيَّتُها المُوَفَّقة ـ عندما جاءَ دينُ الإسلام بتلك الأحكام المُخْتَصَّة بالمرأة كالحجاب، والحشمَة، والقَرار في البيوت، والحذَر منَ الاختلاط إلى غير ذلك ـ ممَّا سيأتي الإشارة إليه ـ جاءَ بها صيانةً للمرأة، وحفظًا لها، ووقايةً لشَرفها ومكانَتها وحمايةً لها منَ الشَّرِّ والفسَاد، ولتُكْسَى بتلكَ الضَّوابط حُلَلُ الطُّهر والعفَاف، فالمرأةُ في ميزان الإسلام دُرَّةٌ ثمينةٌ وجوهرةٌ كريمةٌ تُصان مِن كلِّ أذًى، وتُحمى من كُلِّ رذيلةٍ؛ فما أعظمَ أحكامَ ديننا، وما أجلَّ شأنَها، وما أعظمَ بركَتَها، وما أحسنَ عوائدَها لمن وفَّقه الله ﷻ للالتزام بها؛ وأمَّا مَن تخلَّى عن ضوابط الدِّين وتوجيهاته الحكيمَة زعمًا منه أنَّها تعوِّق عن المصالح أو أنَّه يترتَّب عليها مفاسد أو أضرارٌ أو أنَّها جنايةٌ على المرأة إلى غير ذلك ممَّا يُقال، فهٰذا كلُّه منَ التَّجنِّي العَظيم والقَول على الله وعلى كلامِه وعلى وحيِه وحُكْمِه بغَير علم، ومِن أعظم المحرَّمات وأكبَر الآثام القَولُ على الله ﷻ بلا علم، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سُورَةُ الأَعۡرَافِ].

أيَّتُها الأختُ المُوفَّقة: عندَما تقرئين آيةً من كتاب الله وحديثًا عن رسُول الله ﷺ مشتَملًا على توجيهٍ يختصُّ بالمرأة، فاسمَعي الآيَةَ بتدبُّر وطُمأنينَة وتقبُّلٍ

وانشراح صَدر؛ لأنَّ الكلامَ الَّذي تسمَعينَه هو كلامُ مَن خلقَكِ ﷻ وأوجَدَك وأمدَّك بالسَّمع والبَصر والحواسِّ والقُوى والنِّعم، والفَرقُ بينَ كلامِه وكلام خلقِه كالفَرق بينَه وبينَ خلقِه ﷻ؛ فإيَّاكِ ثمَّ إيَّاكِ أن يكونَ في صدرِكِ وحشةٌ أو نُفْرةٌ أو انقباضٌ من توجيهات ربِّ العالمين، وهكذا الشَّأن في الأحاديث الصَّحيحة الثَّابتة عن رسول الله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء]، والعمل بأحاديثه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ عملٌ بالقرآن؛ لأنَّ الله جلَّ وعلا قال في القرآن: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر : ٧].

روى البخاري عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «**لَعَنَ اللهُ الوَاشِمَاتِ والمُوتَشِمَاتِ والمُتَنَمِّصَاتِ والمُتَفَلِّجَاتِ لِلحُسْنِ المُغَيِّرَاتِ خَلْقَ الله**» فبلغ ذلك امرأةً مِنْ بني أَسَدٍ يُقال لها: أُمُّ يَعْقُوبَ، فجاءتْ فقالت: إنَّه بلغَني عنك أنَّكَ لَعنتَ كيتَ وكَيت؟ فقال: وما لي لا ألعَنُ مَن لعَن رسولُ الله ﷺ ومَن هُو في كتاب الله؟! فقالت: لقَد قرأتُ ما بينَ اللَّوحين فما وجدتُّ فيه ما تقول، قال: لئِن كنتِ قَرَأتِيه لقد وَجَدتِّيه، أما قرأتِ ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾؟ قالت: بلى، قال: فإنَّه قد نهى عنه»[1].

وقد قال الله لأمَّهات المؤمنين: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ [الأحزاب : ٣٤]؛ والحكمة: هي السُّنَّة المأثورة عن النَّبيِّ الكريم

(١) «صحيح البخاري» (٤٨٨٦).

صلوات الله وسلامه عليه.

أيَّتُها الأختُ الكريمةُ الفاضلةُ: إنَّ سعادَتكِ مُرتَبِطةٌ بهٰذا الدِّين وبالتزام توجيهاتِه الحكيمة وآدابه الكريمة وإرشاداته السَّديدة الَّتي هي عِزُّ المرأة وفلاحها، وإن كنتِ تبحثِينَ عن الجمال الحقيقي والزِّينَة التَّامَّة، فاعلَمي أنَّ الله ﷻ يقول: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]، ويقول جلَّ وعلا: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧]، وفي الدُّعاء المأثور: «**اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الإِيمَانِ**»[1]، فالإيمان والتَّقوى والالتزامُ بشرع الله ﷻ وأحكامِه وتوجيهاتِه هو الزِّينَة الحقيقيَّةُ، وهو الجمال الحقيقيُّ، وهو السَّعادة الحقيقيَّة، وهو فلاحُ المرءِ في دنياه وأُخراه.



(١) أخرجه النَّسائي في «سننه» (١٣٠٥)، من حديث عمَّار بن ياسر ﵁.

هدايات القرآن للمرأة المسلمة

إنَّ القُرآنَ الكريم كتابُ الله جلَّ وعلا المنزَّلِ للنَّاس هدايةً ورحمةً هو كتاب السَّعادة الحقيقيَّة والفَلاح في الدُّنيا والآخرة، كتابٌ فيه هدايةُ الأنام وشفَاء الأسقَام وسعادة الدُّنيا والآخرة، ومَن طلب السَّعادةَ من غير طريقِه شَقِيَ، ومَنْ طَلب العزَّ من غَير هُداه ذلَّ، ومَنْ طلب الكرامةَ من غَيْر سبيله أُهِين ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [سُورَةُ الأَحْزَابِ].

جعله الله نورًا للعباد وبصيرةً لهم، يهديهم إلى سعادة الدُّنيا والآخرة وإلى صراط الله المستَقيم وسبيله القَويم ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [سُورَةُ المَائِدَةِ].

وهٰذه وقفة مع بعض هدايات القُرآن المختصَّة بالمرأة المسلمة؛ والَّتي إذا أخذت بها المرأةُ واستَمسكت بها؛ سعِدت في دنياها وأُخراها وتحقَّقَ لها عزُّها وفلاحُها، وإن تركَتْها وتخلَّت عنهَا هلكَت وأهلَكَت، وهي آدابٌ عظيمةٌ ليست

محلًّا للجدل، ولا مجالًا للنِّقاش، أو الرَّدِّ وعدَم القَبول ـ عِياذًا بالله ـ، ومَن تُعْرَض عليه آياتُ القُرآن وهداياتُ كلام الرَّحمٰن ثمَّ يتوقَّف في قَبولها، أو يتردَّد في الاستجابَة لها؛ فَما هٰذا بسبيل المؤمنين.

وعلى المرأة المسلمَة أن تعلَمَ ـ وهي تقرأُ هدايات القُرآن وتتأمَّل في كلام الرَّحمٰن ـ أنَّ سعادتَها لا تكون إلَّا بلزوم هديِ الله والسَّير في صراطه المستَقيم.

❖ فمِن أعظم هداياتِ القُرآن للمرأة وأجلِّها: **أمرُ المرأة بالعناية بعبادَة الله،** وأن يكونَ ذلك أعظم مطلوبٍ لها وأجلَّ مقصود ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [سُورَةُ الأَحْزَابِ].

❖ ومِن هِدايات القُرآن للمرأة: **أمرُها بالحجاب ولزومِه والمحافظة على السِّتر والحِشمَة؛** قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ [سُورَةُ الأَحْزَابِ].

❖ **وأن تحذَر من التَّبرُّج والسُّفور** فعلَ أهل الجاهليَّة الجهلاء؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأَحْزَابِ : ٣٣].

❖ ومن هدايات القُرآن للمرأة: **ألَّا تجلس مع الرِّجال مجلسًا واحدًا** ولا أن تجتَمع وإيَّاهم في منتدًى واحدٍ يتلاقَوْن ويتحادَثُون ويتَحاوَرُون، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأَحْزَابِ : ٥٣].

❖ ومن هدايات القُرآن للمرأة: **أنَّها إذا اضطرَّت إلى الحديثِ مع رجل وأحوَجَها الأمر إلى ذلكَ ألَّا تخضَع بالقَول**؛ لئلَّا يكون خضُوعُها به سببًا لطمع مَن في قلبه مرضٌ من الرِّجال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾ [سُورَةُ الأَحْزَابِ].

❖ ومن هدايات القُرآن للمرأة: **أن تلزمَ بيتها**، وألَّا يكونَ خروجُها منه إلَّا لحاجة تدعُوها لذلك، قال الله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وكلَّما كانت المرأة المسلمة ملازمةً لبيتها مُقَلِّلَةً من الخروج إلَّا عن حاجة كانَ ذلكم أقربَ لها مِن ربِّها ونَيْل رحمتِه، روى ابن حبَّان في «صحيحه»[1] من حديث عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**المَرْأَةُ عَوْرَةٌ، فَإِذَا خَرَجَتِ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ، وأَقْرَبُ مَا تَكُونُ مِنْ رَبِّهَا إِذَا هِيَ فِي قَعْرِ بَيْتِهَا**».

❖ ومن هدايات القرآن للمرأة: **أن تحذر عند اضطرارها للخروج من لفت أنظار الرِّجال إليها**، واجتذابهم للنَّظر إلى محاسنها بأيِّ وسيلة وبأيِّ طريقة: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

❖ ومن هدايات القرآن للمرأة: **أن تَغُضَّ بصرَها، وأن تحفظ فَرْجَها، وأن تَصُونَ عِرضَها**، وأن تحافظ على شرفها وكرامتها: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣١].

❖ ومِن هدايات القُرآن للمرأة المسلمَة: **ألَّا تتطلَّع لشيء من خصائص الرِّجال وصفاتِهم**، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ

---

(١) برقم (٥٥٩٩).

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢]، وقال الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٤].

❖ وقد **أثنى الله في القُرآن على حياءِ المرأة العَظيم**، وما يترتَّب عليه من سترٍ وعِفَّةٍ وحشمةٍ وبُعدٍ عن الاختلاط بالرِّجال، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ إلى قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ [القصص: ٢٣ ـ ٢٥]، وكُلَّما كانت المرأةُ مُتَّصِفَةً بالحياء مُتَحلِّيَةً به كان ذلكم أكملَ في أخلاقها وأجملَ في حِليَتِها وزِينَتِها، بينما إذا نزعَت المرأةُ عن نفسِها جلبابَ الحياء وأطاحَت بلباس الحشمَة والعِفَّة فَقَدَت جمالها الحقيقيَّ ومكانتَها العالية الرَّفيعة السَّنيَّة، وهوَت إلى الحضيض.

❖ ومن هٰذه الهدايات: فيما يتعلَّق بالتَّقرُّب إلى الله ونَيْل رضاه وبلوغ الدَّرجات العُلا في جنَّات النَّعيم، جَعْلُ الباب للرِّجال والنِّساء متساويًا؛ في الإسلام والإيمان، والقُنوت والصِّدق، والصَّبر والصِّيام، والخشوع لله والإكثار من ذكره تبارك وتعالى، فالبابُ مُشرَعٌ وميدانُ التنافس مُهيَّأٌ للجميع رجالًا ونساءً ذكورًا وإناثًا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً

﴿وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ٣٥ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ٣٦﴾ [سورة الأحزاب].

إنَّ توجيهات القُرآن للمرأة وهداياته فيها العزُّ للمرأة ولمجتَمعها، وفيها الفَلاح والسَّعادة في الدُّنيا والآخرة، والواجبُ على المرأة المسلمة الَّتي مَنَّ الله عليها بالإيمان، وهدَاها للإسلام وعرَّفها بمكانَة القُرآن، وجعلها من أُمَّة مُحمَّد ﷺ خير الأنام؛ أن ترعى لآداب القُرآن وتوجيهاته وهداياته قَدرها، وأن تعرفَ لها مكانتَها، وأن تأخُذ بها مأخَذَ العَزم والحَزم والجدِّ والاجتهاد، وأن ترْبَأ بنفسِها عمَّا يدعُوها إليه الهمَلُ منَ النَّاس ممَّن تاهَت بهم الأفكار وانحرفَت بهم السُّبل وحادوا عن هدايات القرآن الكريم، فالمرأةُ المسلمة الَّتي تخشى اللهَ وتخافُه سبحانه، وتُعِدُّ نفسَها للِقَاء الله لا تلتَفت إلى ما يدعُو إليه الهمَل من النَّاس، ممَّن إذا تكلَّموا لم يتكلَّموا بوحيٍ ناطقٍ ولا بسُنَّةٍ مأثورةٍ ولا بفضيلةٍ يُتطَلَّع إلى فعلها ويُعتَنى بتتميمها وتحقيقها، وعليها في هٰذا المقام أن تتأمَّل كثيرًا في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ٢٧﴾ [سورة النساء].



فتنة النساءِ وضرر الاختلاط

إنَّ الدِّينَ الإسلاميَّ الحنيف بتوجيهاته السَّديدَة وإرشاداتِه الحميدَة صانَ المرأةَ المسلمةَ، وحفظَ لها شَرَفَها وكرامَتَها، وتكفَّل لها بعزِّها وسعادتِها، وهيَّأَ لها أسبابَ العيش الهَنِيءِ بعيدًا عن مواطن الرِّيَبِ والفتَن والشَّرِّ والفسَاد.

وهٰذا كلُّه مِن رحمةِ الله جلَّ وعلا بعبادِه حيثُ أنزل لهم شريعتَه ناصحةً لهم ومُصلحةً لفسادِهم ومقوِّمةً لاعوجاجِهم ومتكفِّلةً بسعادتِهم؛ ومِن ذلك ما شَرَعَهُ اللهُ تبارك وتعالى من التَّدابير العظيمة والإجراءات القَويمة الَّتي تقطع دابِرَ الفتنة بين الرِّجال والنِّساء، وتُعِينُ على اجتناب الموبقات والبُعد عن الفَواحش المُهلِكات رحمةً منه بهم، وصيانةً لأعراضهم، وحمايةً لهم مِن خزي الدُّنيا وعذاب الآخرة.

والمرأةُ المسلمة تعيشُ في كَنَف الإسلام وفي ضوءِ توجيهاته وآدابِه العِظام عَيشةً هنيئَةً مِلْؤُها السَّعادةُ والعِزُّ والطُّمأنينةُ والرِّفعةُ في الدُّنيا والآخرة، شعارُها السِّتر والعفَاف، ودِثارُها الطُّهر والزَّكاء، ورايتُها إشاعة الأدَب وتثبيت الأخلاق، وغايتها صيانة الشَّرف وحماية الفَضيلة، وستبقَى المرأةُ المسلمَةُ رفيعةَ الجانب عزيزةَ المنال صيِّنَةَ الأخلاق ما دامَت متمسِّكةً بدينِها محافظةً على أوامر ربِّها مطيعةً

لنبيِّها رسول الله ﷺ، مُسْلِمةً وجْهَها لله مُذعِنَةً لشرعِه وحُكمِه، قائمةً بحقوق الإسلام وواجباته وآدابه العِظام بكُلِّ راحةٍ وثِقَةٍ واطمئنانٍ غير مُلْتَفِتَةٍ إلى الهَمَل من النَّاس مِن دُعاة الفاحشَة والفتنَة؛ لتنالَ بذلكَ السَّعادةَ والرَّاحةَ في الدُّنيا والآخرة وتنال الثَّوابَ العظيمَ والأجر الجزيلَ يومَ لقاءِ الله تبارك وتعالى.

وقَد جاء في الإسلام ما يدلُّ على أنَّ الفتنةَ بالنِّساء إذا وقعَت يَتَرَتَّبُ عليها من المفاسد والمضارِّ ما لا يُدرَكُ مَدَاه ولا تُحمَد عُقْباه، ولهٰذا خافَها النَّبيُّ ﷺ على أمَّته خوفًا عظيمًا، وحذَّر ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كثيرًا من مغبَّتِها وسوء عاقبتها نصحًا للأمَّة ومعذرةً في بيان دين الله تبارك وتعالى، ولقَد كان ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ معلِّمًا أمينًا وناصحًا مُشْفقًا، فما ترك خيرًا إلَّا دلَّ الأمَّةَ عليه ولا شرًّا إلَّا حذَّرها منه.

روى البخاريُّ ومسلم من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً هِيَ أَضَرُّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ**»[1]، وروى مسلم في «صحيحه» من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**اتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ**»[2].

والأحاديثُ عن نبيِّنا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كثيرةٌ جدًّا في هذا الباب العظيم؛ صيانةً للمجتمع والأمَّة، ومحافظةً على المرأة ورعايةً لها، وهٰذه الأحاديث وغيرها ممَّا جاء عن رسول الله ﷺ تُعَدُّ بحقٍّ صِمَام أمان للمَرأة ولبَيْتها ولمجتَمعِها بأسْرِه من أن تَحُلَّ به الرَّذيلةُ أو أن يَنْتَشِرَ فيه الشَّرُّ والفسَاد، فإنَّ المرأة متى تمسَّكت

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٠٩٦)، و«صحيح مسلم» (٢٧٤٠).

(٢) برقم (٢٧٤٢).

بتعاليم الإسلام سعدت في الدُّنيا والآخرة، وساعدت في بناء مجتَمع قويٍّ متماسكٍ نزيهٍ مليءٍ بالطُّهر والعفَاف، وإن تخلَّت عن هذه التَّعاليم تردَّت في مهاوي الرَّذيلة وسقَطت في حَمْأة الفسَاد وفقَدت كرامتَها ومكانتَها ومنزلتَها الرَّفيعَة، فإنَّها إن تلوَّثَتْ بالرَّذيلة جَلَبَت العار والشَّنار لنفسِها وأهلها وقرابتِها، ونكَّسَت رؤوسَهم وحطَّت من أقدارهم بين النَّاس، وإنْ حملت من ذلكَ فقتَلت ولدَها جمعَت بين القَتل و الزِّنا، وإن أدخلَتْه على زوجِها أو أهلِها أدخَلَت عليهم أجنبيًّا ليس منهم يخلو بهم ويَرثُهم ويُنْسَبُ إليهم وليسَ منهم إلى غير ذلكَ منَ المفاسد.

ومَن يتأمَّل التَّاريخَ على طُول مَدَاه يجد أنَّ مِن أكبَر أسباب انهيَار الحضارات وتفكُّك المجتَمعات وتحلُّل الأخلاق وفسَاد القِيَم وفُشوِّ الجريمة هو تبرُّج المرأة ومخالطتُها للرِّجال، ومبالغتُها في الزِّينة والاختِلاط، وخَلوتُها مع الأجانب، وارتيادُها للمُنتَديات والمجالس العامَّة وهي في أتمِّ زينة وأبهى تجمُّل، قال العلَّامة ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا ريبَ أنَّ تمكينَ النِّساء من اختلاطهنَّ بالرِّجال أصلُ كلِّ بليَّةٍ وشرٍّ، وهُو من أعظم أسباب نزول العقوبات العامَّة، كما أنَّه من أعظم أسباب فساد أمور العامَّة والخاصَّة، واختلاط الرِّجال بالنِّساء سببٌ لكثرة الفواحش والزِّنا، وهو من أسباب الموت العامِّ والطَّواعين المُتَّصلة»[1]. انتهى كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.

والإسلام لم يفرض على المرأة الحجابَ، ولم يمنعْها من تلك الأمور إلَّا ليصونَها عن الابتذال، وليحميَها من التَّعرُّض للرِّيبة والفُحش، وليمنعَها من الوقوع في الجريمة والفساد، وليكسوَها بذلك حُلَّةَ التَّقوى والطَّهارة والعَفاف، وسدَّ

(١) «الطُّرق الحكميَّة» (ص٢٣٩).

بذلك كلَّ ذريعةٍ تُفضي إلى الفاحشة، يقول الله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، ويقول تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، ويقول تبارك وتعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ الآية [النور: ٣١]، ويقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ [سورة الأحزاب]، وقال الله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الأحزاب].

وروى التِّرمذيُّ في «جامعه»[(١)] عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**الْمَرْأَةُ عَوْرَةٌ، فَإِذَا خَرَجَتْ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ**»، ومعنى «**اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ**» أي جعلها غرضًا له ليُهَيِّجَ من خلالها الفسادَ والشَّهوة.

وعن أمِّ حُمَيْدٍ السَّاعديَّة رضي الله عنها أنَّها جاءت النَّبيَّ ﷺ فقالت: يا رسولَ الله! إنِّي أحبُّ الصَّلاةَ معك، قال: «**قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكِ تُحِبِّينَ الصَّلَاةَ مَعِي، وَصَلَاتُكِ فِي بَيْتِكِ خَيْرٌ لَكِ مِنْ صَلَاتِكِ فِي حُجْرَتِكِ، وَصَلَاتُكِ فِي حُجْرَتِكِ خَيْرٌ مِنْ صَلَاتِكِ فِي دَارِكِ، وَصَلَاتُكِ فِي دَارِكِ خَيْرٌ لَكِ مِنْ صَلَاتِكِ فِي مَسْجِدِ قَوْمِكِ، وَصَلَاتُكِ فِي مَسْجِدِ قَوْمِكِ خَيْرٌ لَكِ مِنْ صَلَاتِكِ فِي مَسْجِدِي**»[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أَوَّلُهَا**

---

(١) برقم (١١٧٣) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٧٠٩٠).

وَشَرُّهَا آخِرُهَا، وَخَيْرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا وَشَرُّهَا أَوَّلُهَا»[1].

كلُّ ذلك حفظًا للمرأة من الاختلاط بالرِّجال ومزاحمتهم؛ وهٰذا في حال العبادة والصَّلاة الَّتي يكونُ فيها المسلمُ أو المسلمَة أَبْعَدَ ما يكون عن وسوسَة الشَّيطان وإغوائه، فكيفَ إذًا بالأمر في الأسواق والأماكن العامَّة والمنتَديات!! ولَمَّا دخلَت على عائشة رضي الله عنها مولاتُها وقالت لها: «يا أمَّ المُؤمنين طُفتُ بالبيتِ سبْعًا واستلمْتُ الرُّكنَ مرَّتيْن أو ثلَاثًا»، قالت عائشة رضي الله عنها: «لَا آجَرَكِ اللهُ، لَا آجَرَكِ اللهُ، تُدَافِعِينَ الرِّجَالَ!! أَلَا كَبَّرْتِ ومَرَرْتِ»[2]؛ قالت لها ذلكَ مع أنَّها في أشرف مكانٍ وخيرِ بُقعَةٍ، مكانَ طاعةٍ جِوارَ الكعبة؛ فكيفَ الأمر بمَن تزاحِمُ الرِّجالَ في الأسواق والأماكن العامَّة والمنتَديات وهي في كامِل زينَتِها وأجمل حِليتِها وأبهى تعطُّرها!!



(١) أخرجه مسلم (٤٤٠).

(٢) أخرجه البيهقي في «السُّنن الكبرى» (٩٢٦٨).

عبرة عظيمة
من قصة صحابية كريمة

هذه عبرةٌ عظيمةٌ وفائدةٌ جليلةٌ ثمينةٌ نفيدها من قِصَّةِ صحابيَّةٍ فاضلةٍ وهي تحكي خبرَ إسلامها ونبأ دخولها في هٰذا الدِّين وبداية حياتها في الإسلام؛ تلكم هي قَيْلَةُ بنتُ مَخْرَمَة التَّميميَّة رضي الله عنها، وقصَّتُها طويلةٌ رواها الطَّبراني بتمامها في كتابه «المعجم الكبير»[1]، وأجتزئُ من قصَّتِها رضي الله عنها ذكْرَها لخبر وُصولها إلى المدينة ودخولها لمسجد النَّبيِّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ، وكان ذلكم الدُّخول كما رَوَتْ رضي الله عنها وقتَ صلاة الفجر، والنَّبيُّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ يُصلِّي بالمؤمنين، والصُّفوف خلفَه قائمين لأداءِ هٰذه الصَّلاة العظيمة، قالت رضي الله عنها: «قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي بِالنَّاسِ صَلاةَ الغَدَاةِ، وَقَدْ أُقِيمَتْ حِينَ شَقَّ الفَجْرُ، وَالنُّجُومُ شَابِكَةٌ فِي السَّمَاءِ، وَالرِّجَالُ لا تَكَادُ تَعَارَفُ مِنْ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، فَصَفَفْتُ مَعَ الرِّجَالِ امْرَأَةً حَدِيثَةَ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ» ولنتأمَّل امرأةً تَصُفُّ إلى جنب الرِّجال في مسجد النَّبيِّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ! وفي صَلاة الفَجر!! قالت: «فَقَالَ لِيَ الرَّجُلُ الَّذِي يَلِينِي مِنَ

---

(١) برقم (٢٠٥٢٥).

الصَّفِّ: امْرَأَةٌ أَنْتِ، أَمْ رَجُلٌ؟ فَقُلْتُ: لا؛ بَلِ امْرَأَةٌ، فَقَالَ ﵁: إِنَّكِ قَدْ كِدْتِ تَفْتِنِينِي فَصَلِّي فِي النِّسَاءِ، وَإِذَا صَفٌّ مِنَ النِّسَاءِ قَدْ حَدَثَ عِنْدَ الحُجُرَاتِ لَمْ أَكُنْ رَأَيْتُهُ حِينَ دَخَلْتُ، فَكُنْتُ فِيهِنَّ» أي أَنَّها ذهبَت وصلَّت مع النِّساء، وتعتَذر لنفسِها في ذلك الموقف الخاطئ أنَّها كانت حديثةَ عهدٍ بجاهليَّةٍ، أي: أنَّها لم تكُن على معرفة بالإسلام وتفاصيله وأحكامه وهداياته.

تأمَّلي أَيَّتُها الأختُ المسلمَة؛ المكان: مسجدُ النَّبيِّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ، والزَّمان: زمانُه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ، والوقت والحال: حالٌ فاضلةٌ؛ وقتُ أداء صلاةِ الفَجر، ومع هذا كلِّه! يقول ذلكم الصَّحابي الجليل ﵁: «إِنَّكِ قَدْ كِدْتِ تَفْتِنِينِي» وهٰذا المعنى الَّذي ذكره ﵁ هو الَّذي بيَّنه النَّبيُّ ﷺ في حديث أسامة بن زيد ﵄ قال: قال ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «**مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً هِيَ أَضَرُّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ**»[1]، وفي حديث أبي سعيد الخدري أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ**»[2].

فخافَ ﵁ على نفسِه من الفتنَة وهو في مسجد النَّبيِّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ!! وهو خلف النَّبيِّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ في صلاة الفجر!! فكيف الأمر عندما تخالط المرأةُ الرِّجال ليس في وقتٍ ظلمةٍ كهٰذا؛ ولا مكانٍ شريفٍ كهٰذا، وإنَّما في وقتٍ هو في وَضَحِ النَّهار وفي الأسواق والمنتديات العامَّة بكامل زينتها وتمام حِليَتِها وجمال تَعطُّرِها ممَّا هو خَطَرٌ دَاهِمٌ وبلاءٌ عظيمٌ يدمِّر ويُهلك ويُوقِع في الفتَن العِظام الَّتي خافَ النَّبيُّ ﷺ على أمَّتِه منها!!

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

وإذا كانَ النَّبيُّ ﷺ في المسجدِ بيت الله الَّذي هو مَوضِع الطُّمأنينة والإيمان وحُسنِ الإقبال على الرَّحْمٰن جلَّ وعلا يباعد بينَ النِّساء والرِّجال حيطةً وحَذَرًا، ففي «صحيح مسلم»[1] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال ﷺ: «**خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أَوَّلُهَا، وَشَرُّهَا آخِرُهَا، وَخَيْرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا وَشَرُّهَا أَوَّلُهَا**» أي: أنَّ المرأةَ حتَّى وإن كانت في المسجد بيت الله كُلَّما كانت بعيدةً عن الرِّجال كان خيرًا لها وأَوْلى.

وصلاتها في بيتها خيرٌ من صلاتِها في المسجد؛ ففي حديث[2] أمِّ حُمَيْدٍ السَّاعديَّة رضي الله عنها قالت: أتيتُ النَّبيَّ ﷺ وقلتُ: يا رسول الله؛ إنِّي أُحبُّ أن أُصلِّيَ معكَ في مسجدك هٰذا، قال ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «**قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكِ تُحِبِّينَ الصَّلَاةَ مَعِي، وَصَلَاتُكِ فِي بَيْتِكِ خَيْرٌ لَكِ مِنْ صَلَاتِكِ فِي حُجْرَتِكِ، وَصَلَاتُكِ فِي حُجْرَتِكِ خَيْرٌ مِنْ صَلَاتِكِ فِي دَارِكِ، وَصَلَاتُكِ فِي دَارِكِ خَيْرٌ لَكِ مِنْ صَلَاتِكِ فِي مَسْجِدِ قَوْمِكِ، وَصَلَاتُكِ فِي مَسْجِدِ قَوْمِكِ خَيْرٌ لَكِ مِنْ صَلَاتِكِ فِي مَسْجِدِي**».

وجاء في «صحيح البخاري»[3] من حديث أمِّ سلمة رضي الله عنها قالت: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا سَلَّمَ قَامَ النِّسَاءُ حِينَ يَقْضِي تَسْلِيمَهُ وَيَمْكُثُ هُوَ فِي مَقَامِهِ يَسِيرًا قَبْلَ أَنْ يَقُومَ» قال الزُّهري: « نَرَى ـ واللهُ أعلم ـ أنَّ ذلكَ كان لكيْ ينصرِفَ النِّساءُ قبْلَ أن يدرِكهنَّ أحدٌ من الرِّجال».

وجاء في كتاب الله ـ جلَّ شأنه ـ ما يدُلُّ على أنَّ البُعدَ عن الاختِلاط كان موجودًا في الأُمم السَّابقَة قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) برقم (٨٧٠).

﴿يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣ فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ [سُورَةُ القَصَصِ] ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ.

فيا أَيَّتُها المرأةُ المسلمة؛ اتَّقِ الله جلَّ وعلا فإنَّك ستَلْقَيْنه ﷻ، وممَّا تُسْأَلين عنه يومَ القيامة عملكِ بهٰذه التَّوجيهات وهٰذه الإرشادات المباركات في كتاب ربِّ البريَّات وفي أحاديث الرَّسول ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ؛ فإنَّ في تقوى الله ﷻ ولزوم شرعه والتَّمسُّك بأهداب الدِّين وآدابه عِزَّ المسلم وفلاحَه وسعادتَه في دنياه وأخراه.

ومن الدَّعوات العظيمةِ في هٰذا الباب ما رواه أبو داود وغيره من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: ما كان رسولُ الله ﷺ يَدَعُ هؤلاءِ الدَّعواتِ كلَّ يوم إذا أصبحَ وأمسى: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ العَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ العَفْوَ والعَافِيَةَ فِي دِينِي ودُنْيَايَ وأَهْلِي ومَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي وآمِنْ رَوْعَاتِي، اللَّهُمَّ احْفَظْنِي من بَيْنِ يَدَيَّ ومِنْ خَلْفِي وعن يَمِينِي وعن شِمَالِي ومن فَوْقِي وأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ من تَحْتِي**»[1] والدُّعاء بأمْنِ الرَّوعات وستر العورات كما أنَّه جاء وظيفةً في جملة أذكار الصَّباح والمساء فإنَّه ثبتَ به الحديث عن النَّبيِّ ﷺ دعاءً مطلقًا يدعو به المسلم كلَّ وقت وحينٍ؛ ففي «المعجم الكبير» للطَّبراني[2] عن خَبَّاب رضي الله عنه قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ، يقول: «**اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَتِي، وَآمِنْ رَوْعَتِي، وَاقْضِ عَنِّي دَيْنِي**»، فجديرٌ بالمسلم أن يعتَنيَ بهذَا الدُّعاء، وأن يُوصيَ أبناءه وبناته بالمحافظة عليه، والتَّوفيق بيد الله وحده لا شريك له.



(١) أخرجه أبو داود (٥٠٧٤)، وابن ماجه (٣٨٧١).

(٢) برقم (٣٦٢٢).

قصة امرأة من أهل الجنة

وهذه قصَّةٌ عجيبةٌ عظيمةٌ فيها عبرةٌ وعظةٌ؛ إنَّها قصَّةُ امرأةٍ من أهل الجنَّة:

روى البخاري ومسلم في «صحيحيهما»[1] عن عطاء بن أبي رباحٍ قال: قال لي ابن عبَّاسٍ: ألا أُرِيكَ امرَأةً من أهلِ الجنَّةِ؟ قلتُ: بلى، قال: هٰذه المَرأَةُ السَّوداءُ؛ أتتِ النَّبيَّ ﷺ فقالت: إنِّي أُصْرَعُ وإنِّي أتكشَّفُ فادعُ اللهَ لي، قال: «**إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُعَافِيَكِ؟**»، فقالت: أَصْبِرُ، فقالت: إنِّي أتكشَّفُ فادع اللهَ لي أن لا أتكشَّفَ، فدعا لها.

لِنَتَأمَّلْ في قصَّة هٰذه المرأة العظيمة؛ فهٰذه المرأة معها إيمانٌ وصِدْقٌ، ونقاءٌ وصفاءٌ، ودينٌ وحياءٌ، وبها هٰذه الشِّدَّة والبلاء، ألا وهو ما أصابها من صرْعٍ فكانَ يؤرِّقُها ويُقلِقُها، ويُؤذيها ويضجُرها، فجاءت طالبةً من النَّبيِّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ أن يدعوَ اللهَ لها أن يكشفَ ما بها من ضُرٍّ وأن يرفع عنها ما أصابَها من بلاءٍ، فأرشدَها ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ إلى ما هو أعظمُ لها مِن ذلك ألا وهو أن تصبر على الشِّدَّة والبلاء واللَّأْواء، وتكون العاقبةُ الجنَّةَ، فاختارَت حسنَ العاقبة

(١) «صحيح البخاري» (٥٦٥٢)، و«صحيح مسلم» (٢٥٧٦).

وجميلَ المآل وأن تكون من أهل الجنَّةِ بضمانَة رسول الله ﷺ إن صَبَرَتْ؛ فاختارت رضي الله عنها الصَّبرَ إلَّا أنَّه بقي يؤرِّقُها ما كان يصيبُها من تَكشُّفِ بعضِ عورتها وظهورِ بعض أعضاء جسمِها حالَ صَرْعِها؛ مع أنَّها معذورةٌ في هٰذه الحال لمرضِها فليسَت مختارةً لذلك ولا قابلةً له ولا راضيةً به، ومع ذلكَ شدَّةُ حيائها وقُوَّةُ إيمانها ونقاءُ قلبها وحسنُ زكائِها جعلها تقلَق أشدَّ القَلَق مِن هٰذا الانكشاف فاختارت رضي الله عنها الصَّبر ولها الجنَّةُ إلَّا أنَّها قالت: «إِنِّي أَتَكَشَّفُ» أي أنَّ هٰذا أمرٌ لا أتمكَّنُ من الصَّبر عليه وإن كانَ واقعًا عن غير اختيارٍ منِّي، فدعا لها رسول الله ﷺ فكانت بعد ذلك تُصْرَع ولا تتكشَّف بدعوة النَّبيِّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ.

إنَّ قصَّة هٰذه المرأة قصَّةٌ عظيمةٌ تُروى في مكارم الأخلاق وجميل الصِّفات ومحاسن القيَم وجمال الحياء ونقاءِ القلب وصفائِه، نعم!! قالت: «إِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللهَ لِي أَنْ لَا أَتَكَشَّفَ» فكان هٰذا التَّكشُّف الَّذي يقَع عن غير طوعٍ واختيَار، وعلى وضْعٍ لا ملامَة عليها فيه تكشُّفًا يؤَرِّقُها ويقلقها.

فإذا كانت هٰذه حالها ـ وما أكرمها من حال وما أعظمه من وصف ـ فكيف الحال بامرأةٍ تتكشَّف مبديةً محاسنها مظهِرةً مفاتنَها مبرزةً جمالها بطَوْعِها واختيارها غيرَ مُباليَةٍ ولا مُكترِثَةٍ لا بحياء ولا إيمان!! تسمع آياتِ الله، وتسمعُ أحاديثَ رسول الله ﷺ، وتسمع ما في التَّبرُّج والسُّفور من وعيدٍ وتهديدٍ، فلا تُبالي بشيءٍ من ذلكَ ولا تكترَث.

إنَّ هٰذه المرأةُ الَّتي هي من أهل الجنَّة كان تكشُّفُهَا بسبَب صَرْعٍ معذورةٍ وكانت تكره ذلك التَّكشُّفَ أشدَّ الكراهَة، لكن ما يقَع في عددٍ من النِّساء مِن تكشُّفٍ وتبرُّجٍ

وسُفورٍ سببُه صرعٌ من نوع آخر أُصبن به ولا يُعذرن فيه؛ إنَّه صَرعُ الشَّهوات بسبب ضعف الإيمان وقلَّة الدِّين وذهاب الحياء؛ بأن يكون الإنسانُ صريعَ شهواتِه وصريعَ تتبُّع ملذَّاتِه، فيكون بهٰذا الصَّرع ليس مباليًا ولا مُكْتَرِثًا بما يفعَلُه أهُو مِن رضَا الله ﷻ أم من سَخَطِه؟.

وقد عظم هذا النَّوع من الصَّرع في هٰذا الزَّمن بسبب كثرةِ الفتن وتنوُّع دواعي الشَّهواتِ وبُروز أصنافِ المُغْرِيَات في حياة النَّاس، وما استجدَّ فيه مِن وسائل حديثةٍ، كثيرٌ منها تؤجِّج الفتنَ وتُثير في النُّفوس الشَّهوات من خلال قنوات آثمة، ومواقع موبوءة لا هدفَ لها، ولا غايةَ إلَّا إيقاع النَّاس في صَرع الشَّهوات، وأن يكونوا طريحي الملذَّات، فعَظُمَ البلاء واشتدَّ الخطْب.

وقد تحدَّث الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه العظيم «زاد المعاد» عن هٰذا النَّوع من الصَّرع وعن حال النَّاس معَه وما أصابَ كثيرًا منَ النَّاس بسبَب ذلك من فتنٍ وعواصف شديدةٍ تعصفُ بالإيمان واليَقين وتُزلزل الأخلاقَ والحياء، ذاكرًا حال النَّاس في زمانه؛ فكيف به لو رأى حال النَّاس في أزمانٍ مُتأخِّرَةٍ مع فتن مُتكاثرَةٍ!! يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأكثرُ تَسلُّط الأرواح الخبيثةِ على أهله تكون من جهة قلَّةِ دينهم، وخرابِ قلوبهم وألسنتهم من حقائق الذِّكر، والتَّعاويذ، والتَّحصُّنات النَّبويَّة والإيمانيَّة، فتلقى الرُّوحُ الخبيثةُ الرَّجلَ أَعْزَلَ لا سلاحَ معه، ورُبَّما كان عريانًا فيؤَثِّرُ فيه هٰذا.

ولو كُشِفَ الغطاء، لرأيت أكثرَ النُّفوس البشريَّة صرعى هٰذه الأرواح الخبيثة، وهيَ في أَسْرِها وقبضَتِها تسُوقُها حيث شاءت، ولا يمكنُها الامتناعُ عنها

ولا مخالفَتُها، وبهذَا الصَّرع الأعظَم الَّذي لا يفيقُ صاحبُه إلَّا عندَ المفارقَة والمعاينَة، فهناك يتحقَّق أنَّه كانَ هو المصروعُ حقيقةً، وبالله المستعان.

وعلاج هٰذا الصَّرع باقتران العَقل الصَّحيح إلى الإيمان بما جاءت به الرُّسل، وأن تكون الجنَّةُ والنَّار نُصْبَ عينَيْهِ وقبلةَ قلبِه، ويستَحضر أهلَ الدُّنيا، وحلولَ المَثُلات والآفاتِ بهم، ووقوعها خلالَ ديارهم كمواقع القَطْر، وهُم صرعى لا يفيقُون، وما أشدَّ داءَ هٰذا الصَّرع! ولكن لمَّا عَمَّتِ البليَّةُ به بحيث لا يُرى إلَّا مصروعًا، لم يصر مُستَغْرَبًا ولا مُسْتَنْكَرًا، بل صار لكثرةِ المصروعين عينُ المستَنكر المستَغرب خلافَه.

فإذَا أراد الله بعبدٍ خَيرًا أفاق من هٰذه الصَّرعة، ونظر إلى أبناء الدُّنيا مصروعين حوله يمينًا وشمالًا على اختلاف طبقاتِهم، فمنهم مَن أطبق به الجنونُ، ومنهم من يفيق أحيانًا قليلةً، ويعودُ إلى جنونه، ومنهم مَن يَفيق مرَّةً، ويجنُّ أخرى، فإذا أفاق عَمِلَ عمل أهلِ الإفاقة والعَقل، ثمَّ يعاوِدُهُ الصَّرعُ فيقع في التَّخبُّط»(١).

يقول ذلك رَحِمَهُ اللهُ ولم يرَ دواعي الفتن، وما استجدَّ على النَّاس في مثل هٰذا الزَّمان ممَّا يعصف بالإيمان ويخلخل الأخلاقَ ويُذهب المروءةَ والحياء، ومن لم يأخذ نفسَه بزمام الشَّرع ويزمَّها بزمامِ هدي نبيِّنا ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ كان من صَرْعى هٰذه الآفات، وقتلى هٰذه الفتن، وطريحي هٰذه الشَّهوات.

أَيَّتُها المرأةُ المؤمنة: تأمَّلي في حياة هٰذه المرأة ـ السَّوداء، صادقة الإيمان، عظيمة الحياء ـ وهي تخاطب النَّبيَّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ صابرةً على الشِّدَّة

---

(١) «زاد المعاد» (٤/ ٦٣).

واللَّأْواء قائلةً: «إِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللهَ لِي أَنْ لَا أَتَكَشَّفَ» إذا كانت هٰذه حالها خوفًا من التَّكشُّف مع أنَّها معذورة؛ فكيف حالُك أنتِ أيَّتُها المؤمنة؟!

إنَّ بعضَ النِّساء ابْتُلِينَ في هٰذا الزَّمان بانهزاميَّةٍ عظيمةٍ وتحوُّلٍ شنيعٍ بسبب انبهارٍ بحضارات زائفةٍ وتقدُّمٍ قاتلٍ، فأصبَحت المرأةُ لا تُقلِّد مَن هي مُعْجَبَةٌ بحضارتها إلَّا في توافه الأمور وخسيس الأشياء وحقير الأخلاق؛ فجنت على نفسها أعظمَ جنايةٍ، وجرَّت على إيمانها أعظمَ بلاء.

ألا فلتتَّقِ الله كلُّ أمَةٍ مُسلِمَة وكلُّ امرأةٍ مؤمنةٍ ولتتذكَّر وقوفَها بين يدي الله، وأنَّ اللهَ ربَّ العالمين سائلُها يومَ القيامة عن حيائها وعن سترها وعن حشمتها وعن كلِّ ما جاء في كتاب ربِّها وسُنَّةِ نبيِّها صلوات الله وسلامه عليه.

ولَمَّا أُصِيبَ بعضُ النِّساء بهٰذا النَّوع من الصَّرْع ـ صرع الشَّهوات ـ فأصبَحْنَ طَرِيحاتٍ لهٰذا الصَّرع، جنَى عليهنَّ أنواعًا من الجنايات؛ ولهٰذا يُرى في كثيرٍ من بلدان المسلمين وديار أهل الإيمان في أنحاءٍ كثيرةٍ تكشُّفٌ و تبرُّجٌ وسفورٌ لا يُعرَفُ إطلاقًا في تاريخ حياة المرأة المسلمة، بدءًا من الصَّحابيَّات الكريمات ومن اتَّبعهُنَّ بإحسان من نساء الإيمان وأهل الصِّدق والعِفَّة والحياء، فأصبح هؤلاء النِّساء الصَّريعات لا يُبالين بكَشف المحاسن وإبراز المفاتِن؛ فتلك تكشفُ صدرَها، وأخرى تُبدي نحرَها، وثالثةٌ تحلُّ عن شعرها، وأخرى تُبدِي ساقَها وفخِذَها، إلى أنواعٍ من التَّكشُّف والسُّفور والتَّبرُّج من غير وازعِ إيمان، ومن غير حياءٍ ولا خشيةٍ للرَّحمٰن؛ أتذكَّرَ هؤلاء النِّساء البعثَ والوقوف بين يدي الله؟! ثمَّ الحساب والعقاب على كلِّ منكرٍ اقْتَرَفَتْه، وكلِّ فِعلٍ شَنِيعٍ ارتكبته؟! فما الَّذي غرَّها في

إيمانها؟ وما الَّذي غرَّها في حيائها؟! وما الَّذي جعلها تنحطُّ إلى هٰذا السُّفول وتهوي في هٰذا الدَّرْك من الانحطاط؟!

ألَا فلتتدارك المرأةُ ذلك، ولتُنْقِذ نفسَها من هٰذا الصَّرْع مستعينةً بربِّها سائلةً سيِّدَها ومولاها جلَّ شأنُه أن يمُنَّ عليها بالعَفاف وأن يرزقَها الحشمةَ والسِّتر، آخِذَةً بمأخَذ الحزم والعَزم صيانةً لنفسِها ورعايةً لحيائها ومحافظةً على إيمانها؛ والتَّوفيق بيد الله وحده.



قرار المرأة وقارها

إنَّ النِّعمَةَ علينا ـ معاشرَ المسلمين ـ والمنَّةَ عظيمةٌ بالهداية لهٰذا الدِّين والصِّراط المستقيم، إنَّه دين الله تبارك وتعالى الَّذي رضِيَه لعباده ولا يرضى لهم دينًا سواه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة : ٣]، ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥﴾ [سورة آل عمران]، إنَّه الدِّين الَّذي أصلح الله به العقائد والأعمالَ والأخلاق، وأصلح به ظاهرَ المرءِ وباطنَه، وزيَّنه بجمال هٰذا الدِّين وكمالِه، إنَّه الدِّين الَّذي من تمسَّكَ به أفلح ونجح، ومن تَرَكَه ترحَّلت عنه العقيدة السَّليمةُ والأعمال القويمة والأخلاق الفاضلة النَّبيلةُ، إنَّه الدِّين القويم والصِّراط المستقيم الَّذي لا فلاح ولا سعادة للعباد في دنياهم وأخراهم إلَّا بتحقيقه والقيام به؛ الصِّدقُ شعارُه، والحقُّ مداره، والعدل قِوامُه، والرَّحمة رُوحُه، والخير قرينُه، والصَّلاح والإصلاح غايته وقصده، فما أَعْظَمَ هٰذا الدِّين، وما أجلَّ النِّعمةَ علينا به؛ فلنحمدِ الله ربَّنا على أنْ هدانا لهٰذا الدِّين وأن جعَلنا من أهله، ولْنَسْأَلْهُ تبارك وتعالى الثَّبات عليه إلى الممات.

لقد جاء هٰذا الدِّينُ القويم بهداياته العظيمة وتوجيهاته السَّديدة مصلِحًا

للعباد، محقِّقًا للفلاح، قاطعًا لدابر الفتن والفساد، وإنَّ مِنْ تدابير الدِّين العظيمة وتوجيهاته المباركة تلك التَّوجيهات الَّتي جاءت في كتاب الله جلَّ وعلا وسُنَّة نبيِّه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ مُخْتَصَّةً بالمرأة المسلمة، محقِّقةً لها في تمسُّكِها بتلك الآداب والتَّوجيهات الفلاح والسَّعادة والصِّيانة والرِّفعة في الدُّنيا والآخرة، والمرأة المسلمة إذا وفَّقها الله جلَّ وعلا وشرح صدرَها للتَّمسُّك بآداب الإسلام وأحكامه سعِدت وسلِمت وسلِم أيضًا مجتمعُها من الافتتان بها؛ لأنَّ المرأةَ فتنةٌ، بل قال النَّبيُّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ فيما صحَّ عنه: «**مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ**»[1]، وقال ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «**فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ**»[2]؛ فالفتنة في النِّساء فتنةٌ عظيمةٌ وشديدةٌ للغاية، وقد خافها وخَشِيَها نبيُّ الهدى والرَّحمة ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ على أمَّته، وجاء الإسلام بتوجيهات مُسدَّدَةٍ وإرشاداتٍ عظيمةٍ إذا أخذت بها المرأة سَلِمَت وسَلِمَ مُجْتَمَعُهَا من الافتتان بها.

إنَّ الواجب على المرأة المسلمة أن تقرأ القرآن وأحاديث الرَّسول الكريم ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ وتأخذ بالتَّوجيهات الواردة في الكتاب والسُّنَّة مَأْخَذَ الجِدِّ والعزيمة دون تراخٍ أو توانٍ؛ فإنَّ في تلك التَّوجيهات صلاحَها وسعادَتها في دنياها وأخراها، ولَمَّا تمرَّدَ بعض النِّساء على توجيهات الشَّرع وإرشاداته الحكيمة وقَعْن ـ والعياذ بالله ـ في مهاوي الرَّذيلة ومآلاتِ الهلاك، وكثيرٌ منهُنَّ بعدَ خُطُوَاتٍ طويلةٍ وعمرٍ مديدٍ أمضَيْنَهُ في البعد عن شرع الله وتوجيهات الإسلام،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

أعلنَّ في مناسباتٍ كثيرةٍ فشلَهُنَّ بسبب ذلك البُعد عن قِيَم الإسلام وآدابه، والسَّعيدُ من اتَّعظ بغيره، والشَّقيُّ من اتَّعَظَ بِهِ غيرُه.

إنَّ المسلمة عندما تتأمَّل في آداب الإسلام وتوجيهاته لها لا ترى أنَّها تكبيلٌ لها وتقييدٌ لحرِّيَّتها كما يزعُمه خصومُ الإسلام وأعداءُ الدِّين، بل إنَّ توجيهات الإسلام للمرأة المسلمة توجيهاتٌ تكفُل للمَرأة الحياةَ النَّبيلةَ والعيشَ الهنيءَ بعيدًا عن أخطار الفتَن ومسالك الانحلال والانحراف والفسَاد، وعندما تأخذ المرأة بتَعاليم الإسلام تعيشُ حياةَ الوقَار والكمال والجَمال والعفَّة، والحديث في بيان هٰذه التَّوجيهات يطول؛ لكن لنقف مع هذا التَّوجيه العظيم:

يقول الله جلَّ وعلا: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وفي قراءة ﴿وَقِرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾، والمعنى على القراءة الأولى: منَ القَرار وهو المُكث في البيوت وعدم الخروج إلَّا لحاجة وضَرورة ملِحَّة، وعلى القراءة الأخرى ﴿قِرْنَ﴾: منَ الوقار، وبين القراءتَيْن تلازمٌ في المعنى؛ فإنَّ المرأةَ إذا قرَّت في بيتها تحقَّق لها الوقار، بينما إذا كانت خرَّاجةً ولَّاجةً فإنَّ هٰذا الخروج والولوج، وعدمَ القَرار في البيوت يُفضي بها إلى البعد عن الوقار، وحلولِ أضدادِ ذلك محلّه.

وفي قوله: ﴿بُيُوتِكُنَّ﴾؛ مع أنَّ البيوتَ في الغالب مِلْكٌ للأزواج، لكن لما للمرأة من اختصاص بالبيت وبقاءٍ به ورعايةٍ له ومسؤوليَّةٍ عظيمةٍ فيه أُضيفَ البَيتُ إليها؛ لأنَّها مطلوبٌ منها ملازمةُ البيت والقرارُ فيه وأن لا يكون لها خروجٌ من بيتها إلَّا لحاجة.

﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾؛ فإذا خرجت من بيتها تخرج لحاجةٍ أو لضرورة ملتزمةً بضوابط الشَّرع وآدابه، فمِن التَّبرُّج: سفور المرأة وإبداؤُها محاسنَها، وإظهارُها لزينتها، وتعطُّرُها وتجمُّلُها، وحرصُها على فتن الرِّجال ولفت أنظارهم، فكلُّ هٰذه المعاني من تبرُّج الجاهليَّة الأولى الَّتي لا تَنَال منها المرأةُ إن فعلتها إلَّا الانحطاط والسُّفول والعياذ بالله.

ثمَّ هٰذه المرأة الكريمة المصونة الَّتي قرَّت في بيتِها تأتي التَّوجيهاتُ إلى الرَّجل أن يرعى كرامَتَها وأن يَحفَظَ لها فضيلَتَها، وأن لا يكون هُناك اختلاطٌ بين الرِّجال والنِّساء أو خَلوَةٌ بالمرأة الأجنبيَّة لما يَتَرتَّبُ على ذلك من فتنٍ وأضرارٍ، ففي «الصَّحيحين»[1] عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ قال: «**إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ**»، وفي رواية «**لَا تَدْخُلُوا عَلَى النِّسَاءِ**»[2]؛ فالمرأة مطلوبٌ منها أن تَقَرَّ في بيتها، ونُهِيَ الرِّجالُ الأجانبُ عن الدُّخول على النِّساء في البيوت لما يترَتَّبُ على ذلك من شَرٍّ وفتنةٍ وهلاكٍ، «فقال رجلٌ من الأَنصار: يا رسول الله؛ أفرأَيْتَ الحمْوَ؟» أي هل يشمله ذلك؟ والحَمْوُ أو الأحماء: أقارب الزَّوج عدَا آباءَه وأبناءَه؛ كأخيه وعمِّه وخالِه وابن عمِّه وابن خالِه، قال النَّبيُّ ﷺ: «**الحَمْوُ المَوْتُ**».

ولْنَقِفْ مع هٰذا التَّنبيه والزَّجر العظيم: «**الحَمْوُ المَوْتُ**»؛ الحَمْوُ: الَّذي هو قريبُ الزَّوج من أخٍ وعمٍّ وابن عمٍّ وخالٍ وابن خالٍ قال عنهم ـ صلواتُ الله

(١) «صحيح البخاري» (٥٢٣٢)، و«صحيح مسلم» (٢١٧٢).

(٢) أخرجه الدَّارمي في «سننه» (٢٦٨٤).

وسلامُه عليه ـ: «الحَمْوُ المَوْتُ» فكيف بالرِّجال الأجانب البُعَدَاء عن المرأة، ومَن ليس لهم بها قرابةٌ ولا بزوجها؟!

قال: «الحَمْوُ المَوْتُ»؛ وفي تعبيره ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ بالموت تنبيهٌ إلى أنَّ الإخلالَ بآداب الإسلام ووصاياه العِظام لا يوصل بمَن أخلَّ بها إلَّا إلى الموت والهلَكَة، نعم!! قد يكون هٰذا المخِلُّ بآداب الإسلام يمشي على قدمَيْه ويأكل ويشرب ويتحدَّث ولكنَّه في الحقيقة ميِّتٌ؛ لأنَّ الفضيلةَ والعفَّةَ والشَّرفَ والكرامةَ ماتت عنده، فلم يكن من أهلها.

فالفَضيلة تموت، والعِفَّة تموت، والأخلاق تموت، ولموتها أسباب، ودينُنا جاء لحماية العباد مِن موت الفَضيلة وموتِ الأخلاق وموتِ الآداب.

إنَّ المرأةَ المسلمةَ ولا سيَّما في زماننا هٰذا زمنِ الفتن، الزَّمنِ الَّذي انفتح فيه كثيرٌ من النَّاس على عادات الكفَّار وتقاليدهم، بل ومجونهم وانحلالهم وانحرافهم وانحطاطهم وسُفولهم، ومع كثرة النَّظر وإدمان المشاهدة من خلال القنوات الفضائيَّة، ومن خلال مواقع الشَّبكة العنكبوتيَّة، ومن خلال مجلَّاتٍ هابطةٍ ونحو ذلك بدأت تتسَلَّل تلك الأخلاق إلى عقول بعض النِّساء، والمرأةُ ضعيفةٌ وسريعةُ الافتتان إلَّا من حماها الله ﷻ ووقاها وسارعت بإنقاذ نفسها، وسدِّ أبواب الفتنة عنها ملتجئةً إلى الله تبارك وتعالى معتصمةً به.

إنَّنا في زمانٍ يجب علينا أن تتظافر فيه جهودنا حمايةً للفضيلة، ورعايةً للكرامة، وصيانةً للشَّرف، ورعايةً للغَيرة الدِّينيَّة الَّتي جاء بها دين الله تبارك وتعالى، لنعيش في كَنف الإسلام وآدابه العظام وتوجيهاته المُسَدَّدة حياةَ شَرَفٍ وفضيلة، وكرامَةٍ ورِفعةٍ، وإذا كان دينُنا الحنيف بتوجيهاته العظيمة وإرشاداته

السَّمْحَة المباركة يريد مِن المرأة أن تعيشَ حياةَ الكمال والفَضيلة والرِّفعة، فإنَّ أعداءَ الدِّين وخصومه لا يريدون منها ذلك؛ بل يريدون حياة الرَّذيلة والانحطاط والسُّفول ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ٢٧﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ]، نعم! إنَّها حقيقةٌ ظاهرةٌ؛ فعلى المرأة المسلمة أن لا تستهين بهٰذا الأمر وأن لا تسمع لدعوة كلِّ ناعقٍ وكلِّ هاتفٍ، وإنَّما لِيَكُنْ سماعُها مقصورًا على ما كان مُدْعَمًا بالحجج البيِّنات والدَّلائل الواضحات من العلماء المُحَقِّقين الرَّاسخين أهلِ الدِّراية بكتاب الله ﷻ وسنَّةِ نبيِّه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ.

قَدْ هَيَّؤُوكَ لِأَمْرٍ لَوْ فَطِنْتَ لَهُ فَارْبَأْ بِنَفْسِكَ أَنْ تَرْعَى مَعَ الهَمَلِ

إنَّ المرأة إن عاشَت مع آداب الإسلام عاشت حياةً كريمةً فاضلةً في نفسها خاصَّةً، وفي مجتمعها حياةَ الكرماء وعيشَ الأفاضل النُّبلاء، وإن فُتِنَت ومَضَت مع دعاة الفتنة ودعاة الشَّرِّ والفَساد هلكَت في نفسها وكانَت سبب هلاكٍ لغيرها.

ولْتَتَذَكَّرْ أنَّها يومًا من الأيَّام ستُغادر هٰذه الحياة، وأنَّها بجسمِها الجميل ومحاسنها الفاتنة وتزيينها لنفسِها وفتنها للرِّجال سيأتي عليها يومٌ وتُدرَج في حفرةٍ ويُهَالُ عليها التُّراب وتأكلها الدِّيدان ويذهب عنها رَوْنَقُها وجمالها، وتكون في تلك الحفرة رهينةَ أعمالها، وقيدَ ما قدَّمت في هٰذه الحياة، فقد كان قبلها نساءٌ عَمَرْنَ القصور ثمَّ سَكَنَّ القبورَ في أحوالٍ هائلةٍ وألوانٍ حائلةٍ، ورؤوسٍ عن الأبدان زائلةٍ، وعيونٍ على الخدود سائلةٍ؛ فلتتَّقِ الله المرأةُ المسلمةُ ولْتُعِدَّ لهذا اليوم عدَّته.



تأملات في قوله تعالى:

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾



قال الله تعالى في سورة النُّور: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)﴾.

أمر الله جلَّ وعلا في هٰذه الآية الكريمة المؤمنات بغضِّ الأبصار وحفظ الفُروج وذكر أحكامًا أخرى تتعلَّق بالمرأة، وقد ذكرَ ذلك تبارك وتعالى بعد آية تتعلَّق بالرِّجال في الموضوع نفسِه، فقال تبارك وتعالى قبل هٰذه الآية مباشرةً ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠)﴾ فغضُّ البصر أزكى وأطهرُ وأنقى للرَّجل والمرأة معًا، ومن أَطْلَقَ لبصره

العِنان، وأخذَ ينظرُ هنا وهناك ولا يرعى حرماتِ الله تبارك وتعالى، فإنَّ هٰذا ذريعةٌ للوقوع في الفاحشة والمُحرَّم؛ إِذِ النَّظرُ المُحَرَّمُ وسيلةٌ للزِّنا وبريدٌ مُوصِلٌ إليه.

وقوله: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ ذكر هٰذا اللَّقب العظيم؛ لأنَّه يقتضي من صاحبه أن يمتثل أمر الله تبارك وتعالى، فالمؤمنة الصَّادقة الَّتي ينطبق عليها هٰذا الوصف لا تتردَّد في الاستجابة لأمر الله تبارك وتعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، كَأَنْ تقول هٰذا يصلح أو لا يصلح، هٰذا يناسبُني أو لا يناسبُني أو نحو ذلك، وإنَّما تنقاد وتستَسلم.

وقوله: ﴿يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾؛ جاء هنا بـ﴿مِنْ﴾ الَّتي للتَّبعيض؛ فغضُّ البصر مطلوبٌ في الأمور الَّتي أمر الله تبارك وتعالى بغضِّ البصر فيها، ولهٰذا سيأتي في الآية استثناءاتٌ لم تُؤمر بغضِّ البصر عنهُم، وفي المطالبة بغضِّ البصر لا فَرْقَ بين النَّظر إلى الرَّجل مباشرةً أو النَّظر إلى صورته؛ لأنَّ النِّهايةَ في الأمرَيْنِ واحدةٌ.

وفي البَدء بغضِّ البصر قبلَ حفظ الفَرْجِ بَدْءٌ بوسيلةٍ من الوسائل الَّتي تُؤَدِّي المحافظةُ عليها إلى حفظ الفَرج، فالمرأة الَّتي لا تُعنَى بغضِّ بصرها معرِّضةً نفسَها للخطر؛ لأنَّ الشَّيطانَ يستدْرِجُها شيئًا فشيئًا، ولو تأمَّل الإنسان في بداية النِّساء الفاجرات اللَّاتي ابْتُلِينَ بالفواحش العظيمة وجد أنَّ بدايتهنَّ كانت من هٰذا القبيل؛ إمَّا أنَّها أطلقت لبصرها العِنان، أو أنَّها أخذت تنظُرُ في المجلَّات الخليعة أو في الصُّور الماجنة، أو تستمع الأغاني الآثمة أو نحو ذلك من الوسائل المُحرَّمة الَّتي تُؤَدِّي إلى الزِّنا، إلى أن أصبحت بتلك الدَّرجة والعياذ بالله.

ولهٰذا بدأ الله تبارك وتعالى بذكر وسيلةٍ من الوسائل المُؤدِّية للفاحشة، وفي هٰذا تنبيهٌ على غيرها، فما كان مثلُها يفضي إلى الفاحشة فله حكمُها؛ ومن ذلك سماعُ الأغاني المُحرَّمة، والغناء بريد الزِّنا وطريقٌ مُؤَدٍّ إليه، ورؤية الصُّور أو المناظر المُحرَّمَة أو المحادثات المُحرَّمَة أو الحديث مع النِّسَاء المُبْتَلَيات بمثل هٰذه الأمور الباطلة، فهٰذا كُلُّه مما يُؤَدِّي إلى الوقوع في هٰذه الفاحشة.

ثمَّ قال: ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾؛ حفظ الفَرْج من أهمِّ الأمور الَّتي ينبغي أن تُعنَى بها المُسلِمَة باتِّخاذ كلِّ سببٍ يُؤَدِّي إلى حفظه، والَّتي تحفظ فرجَها تنالُ بذلك ألقابًا شريفةً كريمةً لا تنالها إلَّا بحفظِه، حيث وُصِفَت بالعَفيفة، والمُحصَنَة، والبَرَّة، والتَّقيَّة، إلى غير ذلك من الأوصاف الكريمة؛ فكيف تَستبدل هٰذه الأسماء الجليلة باسم الفسوق!! وكيف تستَبدلها بألقاب شنيعة!! كالزَّانية، الفاجرة، العاهرة، الخبيثة؛ و﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١١].

وقد جاء عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ**»[(١)]؛ وحفظ اللِّسان سببٌ من أسباب حفظ الفرج؛ فإنَّ النَّبيَّ ﷺ يقول: «**إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ، فَإِنَّ الأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسَانَ، فَتَقُولُ: اتَّقِ اللهَ فِينَا؛ فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِنْ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا، وَإِنْ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا**»[(٢)] فالأعضاء كلُّها بما فيها الفَرْجُ تبعٌ للِّسان، وكم من امرأةٍ مؤمنةٍ صالحةٍ عفيفةٍ شريفةٍ تعيش بين أسرتها في إيمانٍ وصلاحٍ وتقوى فجاءها ذئب من الذِّئاب فأفسدها بلسانه!

---

(١) أخرجه البخاري، (٦٤٧٤)، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه التِّرمذي في «جامعه» (٢٤٠٧)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وأخذ ـ إمَّا عبر الهاتف أو غيره ـ يحدِّثُها بكلامٍ رقيقٍ وألفاظٍ مُغْرِيةٍ، فأفسد عليها عِفَّتَها وشَرَفَها وكرامتها.

ثمَّ إنَّ سياق الآية اشتمل على ضوابط عديدة عظيمة مَنْ ترعاها حقَّ رعايتها، وتحافظ عليها تمام المحافظة، فإنَّها توصلها إلى حفظ الفَرْجِ وصيانته وسلامته وعفَّته:

قال تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾؛ أي: الجلباب الَّذي يغطِّي جسمَ المرأة كاملًا، فإنَّه لا حرجَ عليها فيه، ولا طاقة لها بإخفائه، ولكن عليها أن تراعيَ فيه أن لا يكونَ نفسُه لباسَ فتنة، فبعض النِّساء تنتقي عَباءَةً مُزيَّنَةً ومُزَخرَفَةً فيها فتنةٌ للرِّجال، فتكون بذلك مخالِفَةً أمرَ الله تبارك وتعالى في هٰذه الآية، فعليها أن تستَشعر وهي تلبس هٰذه العباءة أنَّها لباسُ حِشمةٍ، وليست لباسَ تزيُّن.

وقوله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ﴾ والخمار: هو الجلباب الَّذي تغطِّي به المرأةُ جسمَها، فإذا كُنَّ بحضرة الرِّجال الأجانب يجب أن يَضْرِبْنَ بخمُرُهِنَّ على جيوبهِنَّ فتُغطِّي وجْهَها، وتُغَطِّي يدَها، وتُغطِّي جسمَها، وتُغَطِّي زينَتَها؛ لِئَلَّا تَفتِنَ الرِّجال بزِينَتِها، فتكون وسيلةً لوقوع الفساد.

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ لَمَّا نهى الله تبارك وتعالى عن إبداء الزِّينة ذكَر جلَّ وعلا استثناءاتٍ من هٰذه الآية للمرأة أن تكشف وجهَها ويديها عندهم فقال: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ البَعْل: هو الزَّوج، فتُبدي زينتَها لزوجها، بل إنَّ المرأةَ لا يُشرع لها أن تتَّخذ كاملَ الزِّينةِ وأبهاها وأحسنَ

زينتها إلَّا عند زوجِها، لكن بعض النِّساء تعتَني بالزِّينة إذا أرادَت الخروجَ إمَّا للمناسبات أو نحو ذلك، أمَّا عند زَوجِهَا لا تتَّخذُ زينَةً أبدًا أو تتَّخِذُ زينَةً ضعيفَةً!! وهٰذا من الانتكاس في الفُهوم.

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ فكلُّ هؤلاء محارمٌ لها.

﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ أي: يجوز للنِّساء أن ينظر بعضُهُنَّ إلى بعض مطلقًا، ويحتمل أنَّ الإضافةَ تقتضي الجنسيَّة، أي: النِّساء المسلمات، اللَّاتي من جنسِكم، ففيه دليلٌ لمن قال: إنَّ المُسلِمةَ لا يجوزُ أن تنظرَ إليها الذِّمِّيَّة.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ فيجوز للمَملوكِ إذا كان كلُّه للأُنثى أن ينظُر إلى سيِّدته، ما دامَت مالكةً له كلِّه؛ فإن زال الملك أو بعضُه لم يجز النَّظرُ.

﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ أي: أو الَّذين يتبعونكم، ويتعلَّقون بكم من الرِّجال الَّذين لا إِرْبَةَ لهم في هٰذه الشَّهوة، كالمعتوه الَّذي لا يدري ما هنالك، وكالعِنِّين الَّذي لم يبقَ له شهوةٌ، لا في فرجه، ولا في قَلبه، فإنَّ هٰذا لا محذُور من نظرِه.

﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: الأطفال الَّذين دون التَّمييز؛ فإنَّه يجوز لهم النَّظر إلى النِّساء الأجانب، وعلَّل تعالى ذلك بأنهم ﴿لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: ليس لهم علمٌ بذلك، ولا وُجِدَت فيهم الشَّهوة

بعدُ، ودلَّ هٰذا أنَّ المميِّز تَسْتَتِرُ منه المرأة؛ لأنَّه يظهرُ على عورات النِّساء.

وعندما نتأمَّل هٰذا السياق؛ هل يدخل السَّائق والخادم في ضمن هؤلاء أو لا يدخل؟ هل استثناه الله تبارك وتعالى في هٰذه الآية من ضمن من استثنى بأن تكشفَ له المرأةُ وجهَها أو تُبدي له زينتَها؟ حاشا والله، لم يُسْتَثْنَ؛ بل هو رجلٌ أجنبيٌّ يجب على المرأة أن تحتَجب عنه، وقد وقَع بسبب التَّفريط بهذه الأحكام فواحشُ كثيرةٌ يَنْدَى لها جبين المؤمن إمَّا عن رضا أو عن اغتصاب، وهٰذا كلُّه نتج عن إهمال أوامر الله الَّتي فيها الصِّيانة والعِفَّة في الدُّنيا والآخرة.

ثمَّ قال: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ وهٰذه أيضًا من الأمور الَّتي فيها صيانةُ المرأة وعفَّتها؛ فإذا كانت المرأة مثلًا تلبس الخلخال الَّذي في رجلها لا يجوز لها أن تضرب برجلها حتَّى تلفتَ أنظار الرِّجال الأجانب إليها؛ لأنَّها تكون فاتنةً لهم إذا فعَلت ذلك، ومن ذلك ـ أيضًا ـ إذا كانت تلبس الحذاء الَّذي له صوتٌ ذي الكعب العالي؛ لأنَّه يُظهر عجْزَ المرأة ولأنَّه يُحدِثُ الأصوات الَّتي تُلفِتُ أنظار الرِّجال، والمرأة المؤمنةُ العفيفةُ الصَّالحة تبتَعد عن ذلك وتختار لنفسها الأحذية الَّتي لا تُؤدِّي إلى هٰذا الَّذي حرَّمه الله.

ثمَّ ختم الله تبارك وتعالى هٰذه الآية الكريمة بخاتمةٍ عظيمةٍ مهمَّةٍ جدًّا، فقال جلَّ وعلا: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾، فمَنْ كانت مُضيِّعةً مفرِّطةً فلْتُبادِرْ للتَّوبة لتكونَ من حزب الله المُفلحين.



نصيحة وتهنئة

تتأكَّد في هٰذا الزَّمن على وجه الخصُوص ـ زمنِ الفتن المتكاثرات، والمُلهيات المتنوِّعات، والصَّوارف المتعدِّدات الَّتي شغلت كثيرًا من النَّاس عن الغاية الَّتي خُلقوا لأجلها وأُوجِدُوا لتحقيقها ـ الوصيَّةُ بتقوى الله جلَّ وعلا، وطاعتِه سبحانه، ولزومِ شرعه الحكيم نصحًا للعباد ومَعذِرَةً إلى الله تبارك وتعالى، ويتأكَّدُ هٰذا الأمرُ في شأن المرأة على وجه الخصوص لا سيَّما والتَّركيز في هٰذا الزَّمن عليها؛ مؤامراتٌ تُحاك وخططٌ تُدبَّر، ومآل ذلك إطاحةٌ بحشمة المرأة وعفَّتِها، وسِتْرِها وحيائها، وكرامتها وفضيلتها، ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ].

ويتأكَّد على المرأة خاصَّةً والأمر يعنيها بالدَّرجة الأولى أن تتَّقيَ الله جلَّ وعلا ربَّها، وأن تعرف حقَّهُ عليها وما أمَرَها سبحانه به وما جاء عن الرَّسول الكريم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من توجيهات عظيمات وإرشادات مسدَّدات فيها عفَّةُ المرأة وعزُّها وفضيلتُها وسعادتها في الدُّنيا والآخرة.

والمرأة الحصيفَةُ العاقلةُ النَّاصحةُ لنفسها لا تلتَفتُ لما يقوله الهمَل من النَّاس

ممَنْ يريدون إضاعةَ شَرَفِها وعِزَّتِها، وإنَّما تُصَوِّب نظرَها لما جاءها عن الله وعن رسول الله ﷺ، وفي هٰذا المقام أورِدُ ثلاثةَ أحاديث عظيمةٍ صحَّت عن رسول الله ﷺ، أدعو المرأةَ على وجه الخصوص أن تتأملها تأمُّلًا دقيقًا، وتقفَ على ما اشتَملت عليه من مضامين عِظام.

١ ـ روى البخاري ومسلم في «صحيحيهما»[1] من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ في أَضحَى أو فِطرٍ إلى المُصَلَّى، فمَرَّ على النِّساء فقال: «**يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ؛ فَإِنِّي أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ**» فقُلنَ: وبمَ يا رسولَ الله؟ قال: «**تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ العَشِيرَ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ**».

٢ ـ وروى البيهقي في كتابه «السُّنن»[2] عن أبي أُذَيْنَة الصَّدَفِي رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**خَيْرُ نِسَائِكُمُ الوَدُودُ الوَلُودُ المُوَاتِيَةُ المُوَاسِيَةُ إِذَا اتَّقَيْنَ اللهَ، وَشَرُّ نِسَائِكُمُ المُتَبَرِّجَاتُ المُتَخَيِّلَاتُ وهُنَّ المُنَافِقَاتُ؛ لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْهُنَّ إِلَّا مِثْلُ الغُرَابِ الأَعْصَمِ**».

٣ ـ وروى النَّسائي في «السُّنن الكبرى»[3] عن عُمارة بن خُزيمة بن ثابت قال: «كنَّا مع عمرِو بنِ العاص رضي الله عنه في حجٍّ أو عمرةٍ، فلمَّا كنَّا بمَرِّ الظَّهْرَانِ إذا نحن بامرأةٍ في هوْدَجِهَا واضعةً يدَها على هوْدَجِها، فلمَّا نزل دخل الشِّعْبَ ودخلنا معهُ فقال: كنَّا مع رسول الله ﷺ في هٰذا المَكَانِ، فإذَا نحن بغِربَانٍ كثيرٍ فيها غرابٌ

(١) «صحيح البخاري» (٣٠٤)، «صحيح مسلم» (٧٩).

(٢) برقم (١٣٤٧٨).

(٣) برقم (٩٢٢٣).

أَعْصَمُ أَحْمَرُ المنقَارِ والرِّجليْنِ فقال رسول الله ﷺ: «**لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا كَقَدْرِ هٰذا الغُرَابِ مَعَ هٰذه الغِرْبَانِ**»، ورواه الحاكم في «مستدركه»[(١)] وقال: «وَاضِعَةٌ يَدَهَا عَلَى هَوْدَجِهَا فِيهَا خَوَاتِيمُ»، ورواه أبو يعلى في «مسنده»[(٢)] وقال: «فإذا نحن بامرأةٍ عليها جبائرَ ـ أي أساور في مِعْصَمِها من ذَهب أو فضَّة ـ لها وخواتيمَ وقد بسَطَت يدَها إلى الهودَجِ».

أَيَّتُها المرأة: تأَمَّلي هٰذه الأحاديث الثَّلاثة تَأمُّلًا عظيمًا؛ ذكَر النَّبيُّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ النَّار وأخبرَ أنَّ أكثرَ أهلِهَا النِّساء، وذكر الجنَّةَ وذكر قِلَّة مَنْ يدخلها منَ النِّساء، وليس ذلك تقنيطًا للمرأة من رحمة الله ولا تيئيسًا لها من رَوْحِه، وإنَّما قال ذلك ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ نُصحًا للنِّساء وتحذيرًا لهُنَّ ممَّا يوجِب سخط الله جلَّ وعلا وعقوبتَه، وممَّا يفضي بالمرأة إلى دخول النَّار وإلى تلك العقوبات المذكورة في تلك الأحاديث.

أليس من الجدير بالمرأة أن تقفَ وقفةً صادقةً مُتَأَمِّلةً في هٰذه الأحاديث ناظرَةً في سبب هذا الوعيد، مُتَجَنِّبَةً كلَّ ما يُسخط اللهَ جلَّ وعلا!! وقَد نصَّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ على السَّبب الأعظم والبليَّة الكبرى الَّتي أَوْجَبَت لكثيرٍ من النِّساء تلك العقوبةَ ألَا وهي: التَّبرُّج والسُّفور والخُيَلَاء وممارسة تلكَ الأعمال والعَمل على فتن الرِّجال حتَّى قال: «**مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ**»[(٣)].

---

(١) برقم (٨٧٨١).

(٢) برقم (٧٣٤٣).

(٣) سبق تخريجه.

فالمرأة العاقلة تَرْبَأُ بنفسها أن تكون بهٰذه الصِّفة، وأن تكون بهٰذه الحال خشيةَ أن تبوء يوم القيامة بتلك العاقبة الوخيمة والنِّهاية الأليمة.

وتأملي ـ رعاك الله ـ لما رأى عمرو بن العاص رضي الله عنه تلك المرأة في ذلك المكان مبرزةً يدها مُبدِيَةً محَاسِنَها من ذهبٍ وحُليٍّ في يَدِها واضعةً يدَها على هَوْدَجِها تذكَّر وعيد النَّبيِّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ للنِّساء، فكيف به لو رأى كثيرًا من النِّساء في هذا الزمان في سفورٍ وتبرُّجٍ، وتجمُّلٍ وتزيُّنٍ، وتعطُّرٍ وإظهارٍ للمحاسن في صورٍ مُزْرِيةٍ!! أفلا يتَّقين الله؟! أوَلَا يخشَيْنَ الوقوفَ بين يدي الله تبارك وتعالى؟!

فماذا ترجو المرأةُ سواءً في دنياها أو في أخراها عندما تتبرَّج، وعندما تُبدي زينتَها، وعندما تخالط الرِّجالَ، وعندما تعملُ قصدًا على فتْنِهم ولفْتِ أنظارهم إليها؟! أيَّ خيرٍ ترجوه بمثل هٰذه الأعمال وأيَّ فضيلة تؤمِّلها؟! إنَّه والله الخسران العظيم، والشَّرُّ الكبير، والبلاء المستطير.

أمَّا المرأة العاقلة فإنَّها بعيدةٌ كلَّ البُعد عن هٰذه الأعمال، خائفةٌ من الله ربِّ العالمين ذي الجلال والكمال، حريصةٌ على طاعة الله ونيل رضاه.

ولتتأمَّل المرأة في هٰذا المقام ما رواه الإمام أحمد في «مسنده»[1] عن عبد الرَّحمٰن بن عوف رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا صَلَّتْ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا؛ قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الجَنَّةِ شِئْتِ**»؛ فهنيئًا للمرأة المسلمة هٰذا الموعود الكريم والفضل العظيم إن عاشت حياتَها مطيعةً لله، ممتثلةً أوامرَه سبحانه مبتعدةً عن نواهيه، فإن عاشت

(١) برقم (١٦٦١).

حياتها كذلك فإنَّها تعيش عِيشَةً كريمةً وحياةً طيِّبَةً، ولها يوم القيامة موعودٌ كريم وفضلٌ عظيم وذلك برضا الرَّبِّ جلَّ وعلا عنها ودخولها جنَّات النَّعيم ونجاتها من عذاب الله تبارك وتعالى، أمَّا إذا اغترَّت المرأة بزخرف الحياة الدُّنيا وفِتَنها المُتنوِّعة ولهْوها الباطل وزيفها المُنْصَرِم فإنَّها تُفتَن في دينها ويضيع منها خُلقُها وتذهبُ عنها عِفَّتُها وتترحَّل عنها الأخلاق والقيم والآداب.

ولهٰذا فإنَّ على المرأة المسلمة أن تتَّقيَ الله جلَّ وعلا وأن تُحافِظَ على طاعة الله وأن تَمتَثِلَ أوامرَه جلَّ وعلا، وأن تَبتَعِدَ كلَّ البُعْدِ عن أسباب الزَّيغ والانحراف، وعلى أولياء الأمور أن يتَّقُوا الله في نسائهم وبناتهم، وأن يحَقِّقُوا القِوَامة فيهنَّ بحُسْنِ رعايَتِهنَّ وتمام تأديبِهِنَّ وأخذهِنَّ بآداب الشَّريعة وضوابطها القويمة المستقيمة.

والمرأة ضعيفةٌ والتَّأثير فيها سريعٌ جدًّا؛ تسمع عباراتٍ مغريةً وكلماتٍ مزيَّنةً وألفاظًا فاتنةً وأقوالًا يُدَّعى أنَّها من باب النَّصيحة لها فَتُفتن بذلك كلِّه، لكن على المرأة أن تكون يقِظةً فطِنةً، وأن يكون بين ناظريها مخافةُ ربِّها، وتذكُّر الوقوف بين يدي الله ﷻ وأنَّ الله ﷻ سائلُها عمَّا جاء في كتابه وسنَّةِ نبيِّه ﷺ، وعليها في هٰذا المقام أن تكثِر من الدُّعاء وأن تلحَّ على الله جلَّ وعلا أن يحفظَها من الفتن وأن يَسترُ عَوْرَتَها وأن يؤمِّن رَوْعَتَها وأن يَحْفَظَها بما يحفظُ به عباده الصَّالحين، فالدُّعاء مفتاحُ كلِّ خير في الدُّنيا والآخرة، ومع الدُّعاء تَبْذُلُ الأسبابَ النَّافعات للسَّلامة والنَّجاة والخلاص والفِكاك من تلك الأمور المهلكات.



نعمة اللباس والفتنة فيه

إنَّ ذِكر النِّعمة سببٌ لشكر المُنعِم سبحانه، والشُّكر سببٌ للمزيد قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ [سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ].

وإنَّ من نعمِ الله العظيمةِ على عباده نعمةَ اللِّباس بأنواعه المختلفة وأصنافه العديدة؛ فهي نعمةٌ عظمى ومنَّة كبرى، ولذا فإنَّ الله ﷻ عدَّ هٰذه النِّعمةَ وذكرها سُبحانه في جملة نعمِه العظيمَة الَّتي عدَّدها في سورة النَّحل المعروفَة عند أهل العلم بسورة النِّعم؛ لكَثرة ما عدَّد اللهُ فيها من نعمِه على عبادِه، حيثُ جاء في خاتمةِ هٰذه النِّعم قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [سُورَةُ النَّحْلِ]، فبيَّن جلَّ وعلا في هٰذه الآياتِ العظيمَة نعمتِه على عبادِه بأن جعَل لهم سَرابيلَ وهي

القُمصان ونحوُها من ثياب القُطن والكَتَّان والصُّوف يتَّقون بها الحرَّ والبَرد ويتجمَّلون بها ويستُرون بها عَوْرَاتِهِم.

فلا ريبَ أنَّ اللِّباس نعمةٌ عظيمةٌ ومنَّةٌ كبيرةٌ يجب على عبد الله المؤمن أن يقومَ بشكرُها وأن يستعملَها في طاعة الله ورضوانه وما يقرِّب إليه، وأن يَحْذَرَ أشدَّ الحذَرِ من مُخَالفةِ أمرِ الله في اللِّباس في صفتِهِ ونَوعِهِ وشُروطِه وضَوابِطِه وآدابِه الَّتي جاءَتْ بها الشَّريعةُ.

ولْيَحْذَرِ المسلمُ في هٰذا الباب من كَيْد الشَّيطان ومَكْرِه وطُرُقِه الخفيَّة لصدِّ الإنسان عن الحقِّ في هٰذا الباب وإيقاعه في أنواعٍ من المخالفات، فقد بيَّن الله تعالى أنَّ عداوةَ الشَّيطان للإنسان في هٰذَا الأمر وغيره قديمةٌ، وذكر سبحانه في القرآن احتيالَهُ على الأبوَيْنِ ووسوَسَتِهِ لهما ليُبْدِيَ لهما ما وُورِيَ عنهما من سَوْآتِهِمَا، ودخل عليهما في هٰذا الأمر من طُرُقٍ خفيَّةٍ، وظهر لهما بصورة النَّاصح الأمين، وحَلَفَ لهما على ذلك، ودلَّاهما بغرورٍ، أي أنزلهما عن رُتْبَتهم العليَّة الَّتي هي البعدُ عن المعاصي والذُّنوب إلى الوقوع فيها.

يقول الله تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ٢٠ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢١ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٢ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾ [سورة الأعراف]، فتداركهما الله برحمته ومنَّ عليهما بعَفْوه فغفَر لهما ذلك، كما قال سبحانه: ﴿وَعَصَىٰٓ

ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [سُورَةُ طه].

هٰذا وإبليس مستمرٌّ في طُغيانِه، غيرُ مُقلعٍ عن عِصْيانه، حريصٌ أشدَّ الحرص على إغواء الذُّرِّيَّة كما أغوى الأبوَيْنِ، ولهٰذا اتَّجه الخطابُ في هٰذا السِّياق الكريم إلى الذُّرِّيَّة للحَذَرِ من هٰذا المُضِلِّ الفتَّان من أن يفتِنَهم بالوسوسَة كما فعل مع الأبوَيْنِ، قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [سُورَةُ الأَعۡرَافِ].

وهنا ذكر الله جلَّ وعلا النِّعمة على عباده باللِّباسَيْن:

❖ لباس الباطن بالتَّقوى، وهو يستمرُّ مع العبد ولا يَبْلَى ولا يَبيدُ ما حافظ عليه العبدُ، وهو جمالٌ للقلب والرُّوح.

❖ ولباس الظَّاهر بالثِّياب الَّتي تستُر العورةَ وتواري السَّوأة وتكون جمالًا للنَّاس.

وإذا فَقَد الإنسانُ لباسَه الظَّاهر أو نَزَعه بدَت سَوْأَتُه، وفي هٰذا دليلٌ على أنَّ كشفَ العَورة من عظائم الأمور، وأنَّه مُسْتَهْجَنٌ في الطِّباع، ولذلك سُمِّيَتْ سَوْأَةً؛ لأنَّه يسوءُ صاحبَها انكشافُها، وأمَّا اللِّباس الباطن وهو التَّقوى فبتقدير عدمِه فإنَّها تنكشف عَوْرَتُه الباطنةُ، ويناله الخزي والفضيحة، ويقعُ في أنواع الفساد والرَّذيلة، ويتعرَّى بذلك من كِساء الحياء والخوف والمراقبة والسِّتر والعفَّة وغير ذلك، ولهٰذا قال سبحانه: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾؛ لأنَّه يترتَّب على صلاحه صلاحُ الظَّاهر، ويترتَّب على فساده فسادُ الظَّاهر؛ فإذا ازدانت القُلوب بالتَّقوى زانت الأبدان، وصلحت الأعمال، وتجمَّلت الجوارح بالحِشمةِ والعفاف والسِّتر والحياء والمراقبة لله تبارك وتعالى، وإذا انتُزعت التَّقوى من القلوب وذهب عنها هٰذا اللِّباس العظيم

انحطت الأبدان في أنواعٍ كثيرة من الرَّذائل، وصنوفٍ عديدةٍ من الخسائس.

ثمَّ إنَّ الشَّيطان عداوتُه للإنسان في لباسه قديمةٌ جدًّا وكيدُه له فيه قديمٌ؛ يكيد للإنسان كَيْدًا عظيمًا ليُجَرِّدَه من لباسِه وليكشِفَ عوْرَتَه وليُجَرِّدَهُ من حيائه وحِشمَتِه، ولهٰذا قال الله تعالى بعد تذكيره بهٰذه النِّعمة موجِّهًا الخطاب للذُّرِّيَّة: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾ [الأعراف]، فحذَّر سبحانه الذُّرِّيَّةَ من أن يفعَل بهم الشَّيطان كما فعَل بأبيهم بأن يُزَيِّن لهم المعاصي ويرغِّبَهم في المحرَّمات ويوقِعَهم في الخطيئةِ، وأخبر سُبحانه أنَّ هٰذا العدوَّ يراهُم مِن حيث لا يَرَوْنَه، قال مالك بن دينار: «إنَّ عدوًّا يراك ولا تراه لشديدُ المؤنة؛ إلَّا مَن عَصَم الله»[1].

وإذا كان هٰذا العدوُّ قد تمكَّن ببالغ كَيْده وشدَّة مكرِه وتَوَالي وسوسَتِه أن يُخْرِجَ الأبوَيْنِ من الجنَّة؛ فلَأَنْ يتمكَّن من إيصال شيءٍ من هٰذه المَضارِّ وإلقاء شيءٍ من هٰذه الوساوس إلى الذُّرِّيَّة مِن باب أَوْلى، ولا سيَّما النِّساء لشدَّةِ ضعفِهنَّ وقلَّةِ إدراك كثيرٍ منهُنَّ.

وبهٰذه اللَّفتة القويَّة حذَّر تعالى بني آدم منه بالاحتراز الدَّائم من كيده ووسوسته، وختَم سبحانه الآية بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، أمَّا المؤمنون فليس له سلطانٌ عليهم ﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ١٠٠﴾ [النحل]، ولهٰذا فبقَدْر ضَعْف الإيمان في الإنسان يكونُ نفوذُ الشَّيطان إليه، وهي خطوات يتَدَرَّج بها الشَّيطان مع الإنسان إلى أن يُوقِعَه في

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (٥/ ١٤٦٠).

الحضيض، وفي حمأةِ الرَّذيلة، وفي شدَّة الفساد، ولا سيَّما مع المرأة حيث يستغلُّ ضعفَها ونقصَ عقلها ودينها فيوقعها في أنواعٍ من التَّجرُّد من اللِّباس والتَّعرِّي من الفضائل عبر خُطُواتٍ عديدةٍ وكيدٍ مُتَوَاصِلٍ، إلى أن آل الأمر في بعض النِّساء إلى الخروج باديةَ الرُّؤوس والأعناق والمعاصم والأذرع والسُّوق ونحو ذلك، نزعًا للحياء، وانغماسًا في الوَباء.

ثمَّ إنَّ الله تبارك وتعالى خاطب بني آدم خطابًا آخر في هٰذا السِّياق له تَعلُّقٌ باللِّباس فقال سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢﴾ [الأعراف]، فأخبر سبحانه أنَّه أخرج لعباده الزِّينةَ من أنواع اللِّباس على اختلاف أصنافه، والطَّيِّبات من الرِّزق من مَأْكَلٍ ومَشْرَبٍ بجميع أنواعه، وجميعُ هٰذه الأشياء الأصلُ فيها الإباحةُ والحِلُّ إلَّا ما جاءت الشَّريعةُ بتحريمه من ذلك، وليس لأحدٍ أن يحرِّمَ شيئًا من ذلكَ إلَّا بدليلٍ شرعيٍّ صريحٍ، ولذا قال سُبحانه: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾، أي مَن هٰذا الَّذي يُقْدِم على تحريم ما أَنْعَمَ الله على العباد؟ ومَن ذا الَّذي يُضَيِّقُ عليهم ما وسَّعه الله؟ ولهٰذا فالأصلُ في العادات من المآكل والمشارب والملابس والذَّهاب والمجيء والكلام وسائر التَّصرُّفات المُعتادَةِ الحِلُّ، فلا يحرُمُ منها إلَّا ما حرَّمَه الله ورسولُه، إمَّا بنصٍّ صريحٍ أو يدخُل في عمومٍ أو قياسٍ صحيحٍ، وإلَّا فسائر العادات حلالٌ، كما دلَّ على ذلك النَّصُّ المُتَقَدِّم، وكذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ [البقرة: ٢٩]، وغيرهما من النُّصوص، فالله جلَّ وعلا أمرَ عبادَه باللِّباس

ولم يُعيِّن نوعًا منه يجبُ التزامُه، وإنَّما الأمر في ذلك عائدٌ إلى عادات النَّاس وأعرافِهم، فالأصل في اللِّباس الإباحةُ كما قال نبيُّنا ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «**كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالْبَسُوا وَتَصَدَّقُوا فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا مَخِيلَةٍ**»[1]، قال ابنُ عبَّاسٍ: «كُلْ مَا شِئْتَ، والْبَسْ مَا شِئْتَ، مَا أَخْطَأَتْكَ اثْنَتَانِ: سَرَفٌ أو مَخِيلَةٌ»[2]، لكن جاءت الشَّريعة بجملةٍ من الضَّوابط والشُّروط والقيود لا بدَّ من مراعاتها في اللِّباس، فهي تَكفُل للإنسان سعادتَه وحشمتَه وفلاحَه في دنياه وأخراه، ولهٰذا يجب على كلِّ مسلمٍ أن يتقيَّد في لباسه بضَوابط الشَّريعة وقُيود الإسلام ـ وقد بسطها أهلُ العلم في مُؤَلَّفات عديدةٍ ـ لتتحقَّق له الفضيلة وليتمَّ له الكمال.

والفتنةُ في اللِّباس تأخذُ أبوابًا عديدةً ومجالاتٍ مُتنوِّعةً، والحديث عن أنواع اللِّباس الَّتي زُجَّ بها لتَوريط المرأة فيها واسعٌ جدًّا، حتَّى إنَّه باتَ من المُعضِلات أن يجدَ أهلُ الفضل والخير لباسًا مُحتَشَمًا يشتَرونه لنسائهم وبناتِهم.

والواجب على المرأة أن تحذرَ أَشَدَّ الحذرِ من كيد الأعداء ووساوس الشَّيطان في خُطُواتٍ لهم جريئةٍ نحوَ تجريد المرأة من لباسِها وتعريَتِها من حشمتِها في ثيابٍ كثيرةٍ اسْتُجْلِبَتْ إلى أسواق المسلمين توريطًا للمرأة المسلمة وإيقاعًا لها في حَمْأَةِ الشَّرِّ، وشَغْلِها بأنواعٍ من الألبسة الكاسيَة العاريَة، وتهييج قلبِها إلى حُبِّ التَّشبُّه بغير المُسلمات ممَّن يَمْشِينَ على الأرض دون إيمانٍ يَرْدَع أو خُلقٍ يَزَع أو أدبٍ يَمْنَع، وجرِّها من وراء ذلك كلِّه إلى منابذة الشَّريعة، وجرِّ أذيال الرَّذيلةِ، والبُعد

(١) رواه البخاري مُعلَّقًا في «كتاب اللِّباس»، ووصله أحمد (٦٦٩٥)، والنَّسائي (٢٥٥٩)، وابن ماجه (٣٦٠٥) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاري مُعَلَّقًا في «كتاب اللِّباس»، ووصله ابن أبي شيبة في «المصنَّف» (٢٤٨٧٨).

عن منابع العِفَّة والفضيلة، وفي صحيح مسلم[1] عن أبى هريرة قال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «**صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلاَتٌ مَائِلاَتٌ رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ لاَ يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا**»

وممَّا ينبغي أن يُعلَم أنَّ سترَ المرأة وحشمَتَها وحياءَها عائدٌ إلى قُوَّة إيمانها ودينها، ويُنظَر في هٰذا على سبيل المثال إلى حال أمِّ سلمةَ ﵂ لَمَّا ذَكَرَ النَّبيُّ ﷺ أنَّ المرأةَ تُرْخي شِبرًا قالت: «إذًا ينكشف عنها» فقال النَّبيُّ ﷺ: «**تُرْخِي ذِرَاعًا لَا تَزِيدُ عَلَيْهِ**»[2]، أمَّا مَن رقَّ دينُها وضَعُفَ إيمانُها فإنَّ همَّتَها مُتَّجِهَةٌ إلى الكشف شِبرًا أو ذراعًا أو أَزْيَدَ بحسب رقَّة الدِّين، وربَّما زعمَت أنَّ في ذلك تَحضُّرًا وتمدُّنًا ورُقِيًّا، والواقع أنَّه إلى الحضيض وإلى الهلاك.

فلتتقِّ اللهَ المرأةُ المسلمةُ، ولْتُرَاقِبْ ربَّها جلَّ وعلا في السِّرِّ والعلانية، ولْتَعْلَمْ أنَّ سِترَها ولباسَها يُعدُّ حشمةً لها، وصِمَام أمان لها يحفظها بإذن الله من الفتن وعاديات السُّوء.



(١) برقم (٥٧٠٤).

(٢) أخرجه أبو داود في «السُّنن» (٤١١٧)، والتِّرمذي في «جامعه» (١٧٣٢)، والنَّسائي في «السُّنن الكبرى» (٩٦٥٤)، وابن ماجه في «السُّنن» (٣٥٨٠).

زينة الإيمان

زينة الإيمان تلكم هي الزِّينة العظيمة والحِليَةُ البَهيَّةُ الجميلة؛ الَّتي مَنْ وُفِّق للتَّحلِّي بها والتَّجمُّل بها والتَّزيُّن بها فقد وُفِّق لأعظم الخير وسعِد في دنياه وأخراه؛ إذ هو الزِّينة الحقيقيَّةُ والحِليةُ الَّتي لا نَظيرَ لها ولا مثيلَ، ومَن عرِيَ عن هٰذه الزِّينة فإنَّه فاقدٌ للجمال وإن كان مُتَحلِّيًا بأبهى الحُلل وأحسَن الثِّياب، ولَمَّا ذَكَرَ الله ﷻ في سورة الأعراف نعمةَ اللِّباس وإنزاله للنَّاس ليكون لهم زينةً وسترًا وجمالًا قال ﷻ في ذلكم السِّياق الكريم: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]، إذْ إنَّ لباسَ التَّقوى وحِليَةَ الإيمان هو الحليةُ الحقيقيَّةُ والزِّينة التَّامَّةُ الكاملةُ الَّتي مَنْ فقَدَها فقَدَ الخيرَ والفضيلةَ وفَقَدَ الحُسنَ والجمالَ، فأيُّ جمالٍ يُتَصوَّر بدون إيمان!! وأيُّ حلاوةٍ وحُسْنٍ تتصوَّر بدون تقوى الرَّحمٰن ﷻ!! نعَم قَد تكون هناكَ مظاهرُ زائفةٌ، وأمورٌ يُفتَنُ بها النَّاس ويظنُّون أنَّهم بها على أكملِ زينةٍ وأحسنِ حِلْيَةٍ، إلَّا أنَّهم بفقْدهم لزينة الإيمان وحلاوةِ الإيمان يكونون فاقِدين للزِّينةِ الحقيقيَّة والجمال الحقيقي.

ولقد امتنَّ الله ﷻ على أهل الإيمان بأن أكرَمَهُم بهٰذه الزِّينة، وجمَّلهم بهٰذه الحِليَةِ، وأصبحوا لمخالطة الإيمان قلوبَهم ولِتَذَوُّقِهم طعمَه وحلاوَته ولمعرفتهم

بقدره ومكانته يحسُّون بمكانة هٰذه الزِّينةِ ويجدون ذلكَ في قلوبهم، قال الله تعالى في سورة الحجرات: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٨﴾، والشَّاهد قول الله ﷻ: ﴿وَزَيَّنَهُۥ﴾ أي الإيمان ﴿فِي قُلُوبِكُمۡ﴾؛ فأصبحَ قلبُ المؤمن الَّذي منَّ الله ﷻ عليه بذوقِ هٰذه الحلاوة وشهودِ هٰذا الطَّعم والهناءة بهٰذه اللَّذة يجد هٰذه الزِّينة في قلبه، ويحسُّ أنَّ هٰذه الزِّينة الَّتي منَّ الله ﷻ عليه بها وأكرمه بأن جعله من أهلها هي الزِّينةُ الحقيقيَّة والجمال الحقيقي، فلا يغترُّ بالمظاهر الزَّائفة الَّتي تكون لأناسٍ مُعوِّقًا وصارفًا عن تحقيق الإيمان وتتميمه وتكميله؛ بل لقد آل الأمر ببعض النَّاس إلى أن أصبحوا في البحث عن الزِّينة الموهومة يخالفون شرعَ الله ويعصُون رسولَه ﷺ ويخالفون الفطرة السَّليمة الَّتي خلقهم الله ﷻ عليها وهُم في توهُّمِهم الخاطئ يظنُّون أنَّهم بذلك يحقِّقون الزِّينَةَ والحِليةَ لأنفسهم وأنَّهم يكتَسبون بذلك حُسنًا وجمالًا، وهيهات ثمَّ هيهات أن يُكتَسب الجمال بعصيان الرَّحمٰن، وأن تُنَالَ الحِليةُ بمخالفة الرَّسول الكريم ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ، وواقع هؤلاء أنَّهم يعيشون أوهامًا زائفةً وظنونًا فاسدةً وتحوُّلاتٍ في الفِطَر القويمة والعقول المستقيمة.

والعاقل يبني حِليَتَهُ وزِينَتَهُ في ضوء ما حُدَّ له في شرع الله المُطَهَّر وسُنَّة نبيِّه الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، وفي الدُّعاء المأثور عن نبيِّنا ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ وهو في «السُّنن الكبرى» للنَّسائي وغيره بسندٍ ثابتٍ من حديث عمَّار بن ياسر وهو من جملة أدعية الصَّلاة، يقول ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «**اللَّهُمَّ**

زَيِّنَّا بِزِينَةِ الإِيمَانِ وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ»[1] فيسأل ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ ربَّه هٰذا السُّؤال العظيم والمطلب الجليل والمقصد النَّبيل؛ وهو التَّزيُّن بزينة الإيمان والتَّجمُّل بجمال التَّقوى ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾.

وهٰذا التَّزيُّن والتَّجمُّل بحِليةِ الإيمان وزينته يتطلَّب من العبد الموفَّق مجاهدةً للنَّفس واستعانةً بالله ﷻ كما قال ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بالله**»[2]؛ فيجاهد نفسَه على التَّحقُّق بحقائق الإيمان وشرائع الإسلام ساعيًا في تكميل نفسه بذلك وتتميم جماله الظَّاهر والباطن بتحقيق ذلك، وهو في كلِّ ذلك يطلب من الله مدَّه وعونَه.

وزينةُ الإيمان هي زينةٌ تتناول ظاهرَ العبد وباطنَه؛ فهي زينةٌ للقلب بحقائق الإيمان وأصول الدِّين، وأعظمُ ذلكم أصول الإيمان الَّتي يقومُ عليها دينُ الله وتقوم عليها هٰذه الزِّينة «**أَنْ تُؤْمِنَ بالله ومَلائِكَتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ واليَوْمِ الآخِرِ وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»[3]؛ وهي أصول وأسسٌ يقوم عليها هٰذا الجمال العظيم والزِّينة العظيمة؛ زينة الإيمان، قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال الله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم (٨)، من حديث عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه.

﴿رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [سورة البقرة]، وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ١٣٦﴾ [سورة النساء].

فهٰذه أسسٌ يُبْنَى عليها هٰذا الجمالُ العظيمُ وتقومُ عليها شجرةُ الإيمان الَّتي لا أَزْيَنَ منها وأحسنَ، فقِيامُها على أصلٍ ثابتٍ، ومنه تتفرَّع الفروع الجميلةُ البَهيَّة الحسنة ـ فروع الإيمان ـ وهي أنواع الطَّاعات وصنوف القُرُبات الَّتي يتقرَّبُ بها المسلم لربِّه جلَّ وعلا، ثمَّ بعد ذلك تأتي الثِّمار الجميلة الحسنة البَهيَّة الَّتي يجنيها المؤمن ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم : ٢٥]، فلا يزال المؤمن يجني من ثمار هٰذه الشَّجرة الجميلة البهيَّة في كلِّ وقتٍ وحينٍ في دنياه وأخراه؛ من سعادةٍ، وراحة قلبٍ، وقُرَّة عينٍ، وهناءة نفسٍ، وسَعَةِ رزقٍ، وذهاب همٍّ، وزوال غمٍّ إلى غير ذلك من الثِّمار في هٰذه الحياة الدُّنيا، وثواب الآخرة خيرٌ وأبقى.

ثمَّ إنَّ تزيُّنَ الظَّاهر وتجمُّلَه بزينة الإيمان إنَّما يكون بلزوم فرائض الدِّين وواجبات الإسلام والشَّرائع الَّتي أُمر بها العبدُ وفي مقدِّمةِ ذلك مباني الإسلام الخمسة الَّتي قال عنها النَّبيُّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ في حديث ابن عمر: «**بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ ورَسُولُهُ، وإِقَامِ الصَّلاَةِ، وإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وحَجِّ البَيْتِ، وصَوْمِ رَمَضَانَ**»[1]، فإنَّ هٰذه الأعمال المباركة والطَّاعات العَظيمة هي في الحقيقَة زينةٌ للمسلم وجمالٌ، إضافةً إلى كونها سبب فلاحه وسعادته في دنياه وأخراه؛ فالصَّلاة نورٌ لصاحبها وبهاءٌ وحُسنٌ، وكذلك

(١) أخرجه البخاري (٨)، واللَّفظ له، ومسلم (١٦).

عموم الطَّاعات لا يزال العَبد يزداد بها حسنًا وبهاءً، بخلاف المعرِض عن دين الله ﷻ؛ فإنَّ الخطيئة والمعصية والبعد عن طاعة الله ﷻ ظلمةٌ في الوجه ووحشةٌ في الصَّدر، وكذلك النُّكوص عن شرع الله ﷻ بممارسة البدع المُحدَثَات يسبِّبُ ذلك كما قال عبدُ الله بن المبارك رَحِمَهُ الله: «صاحبُ البدعة على وجهه ظُلْمَةٌ؛ وإن ادَّهن في اليوم ثلاثين مرَّةً»[1] أي أنَّ وضعَ الدُّهون على البدن للتَّجميل والتَّحسين لا تُذهب ظلمةَ البدعة وظلمةَ المعصية لله ﷻ منَ الوجوه.

وكذلك من الجمال العظيم عنايةُ المسلم بآداب الشَّريعة وأخلاقِ الإسلام؛ فإذا أكرم الله ﷻ عبده بالتَّحلِّي بالآداب الفاضلة والأخلاق الكاملة والمعاملات الرَّفيعة؛ فإنَّ كلَّ من يخالطه يحسُّ بهٰذا الجمال ويلمس هٰذا الحُسن الَّذي يكسو من كان مُتحلِّيًا مُتَجَمِّلًا مُتَزَيِّنًا بأخلاق الإسلام الفاضلة، وقد أتى نبيُّنا ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ بالآداب الكاملة والأخلاق الرَّفيعة الفاضلة الَّتي تسمو بصاحبها في عالي الدَّرجات ورفيع الرُّتب، إضافةً إلى ما أعدَّه الله ﷻ لذوي الأخلاق الرَّفيعة من أجرٍ وثوابٍ، حتَّى إنَّ النَّبيَّ ﷺ سُئِلَ عن أكثر ما يُدخِلُ النَّاس الجنَّةَ فقال: «**تَقْوَى الله وحُسْنُ الخُلُقِ**»[2]، وقال ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلَاقِ**»[3]، وقال: «**أَقْرَبُكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا**»[4]، والأحاديث في هٰذا الباب عديدةٌ.

---

(١) أخرجه اللَّالكائي في «اعتقاد أهل السُّنَّة» (١/ ١٥٩).

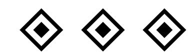
(٢) أخرجه التِّرمذي في «جامعه» (٢٠٠٤)، وابن ماجه في «سننه» (٤٢٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (٨٩٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه التِّرمذي في «جامعه» (٢٠١٨)، من حديث جابر رضي الله عنه، وأصله في «الصَّحيحين».

ثمَّ إنَّ ممَّا هو داخلٌ في هٰذه الزِّينة ـ زينة الإيمان وجمال هٰذا الدِّين ـ: بُعْد العبد عن المنكرات وبُعده عن المحرَّمات؛ فإنَّ الله ﷻ لم يحرِّم على عبادِه شيئًا إلَّا لما فيه من المَضرَّة عليهم في العاجل والآجل، فالمعصية وإن مالَت إليها النَّفس وتطلَّعت في بعض الأوقات لفعلها وتشوَّفت للوقوع فيها هي في الحقيقة هَلَكَة للإنسان في دنياه وأخراه وإذهابٌ لبهائه وحسنه، وإذا خطا في المعصية خطواتٍ كان بكلِّ خطوةٍ يخطوها في المعصية يفقِدُ حظًّا ونصيبًا من زينة الإيمان وجماله بحسب ذلك.

وأختم هذه النَّصائح والتَّوجيهات بما ابتدأتُ به أوَّلًا وهو خاتمةُ دعوى أهل الجنَّة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٩ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠﴾ [سُورَةُ يُونُسَ]، وبالله وحده التَّوفيق لا شريك له، وأسألُه سبحانه أن يوفقَ أخواتي المسلمات لحسن الانتفاع، وأن يهدِيَنا أجمعين صراطَه المستَقيم صراط الَّذين أَنْعَمَ الله عليهم من النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين وحَسُنَ أولئك رفيقًا، وحسبنا الله ونعم الوكيل، والحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى اللهُ على نبيِّنا مُحمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا.



فهرس المواضيع

